أحمد ضحية

المنشق

ريبورتاج المرايا والظلال

رواية

ثلاثية صانع الفخار

الجزء الثالث

ثلاثية ملحمية

دار البسمة للنشر الإلكتروني

أحمد ضحية

المنشق

ريبورتاج المرايا والظلال

أحمد ضحية

اسم الكتاب: المنشق

اسم الكاتب: أحمد ضحية

نـوع العمل: رواية

عدد الصفحات: 233

التدقيق اللغوي: الكاتب أحمد ضحية

الرقم الدولي EBIN: 16-136-01-210803

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1442هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

محفوظة جميع الحقوق

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صـورة نشـر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاســـترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من المؤلف. ©

المنشق

ريبورتاج المرايا والظلال

ريبورتاج المرايا والظلال

الجزء الثالث من ثلاثية صانع الفخار

ثلاثية ملحمية

أحمد ضحية

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم، للإمبراطورية.. لا، لشعوبها!

ونستون تشرشل

قد يحصل أن الدولة تأخذ بمظاهر القوَّة والبطش، لكنها إفاقة/ قريبة الخمود، أشبه بالسرَّاج عند انتهاء الزَّيت منه، فإنه يتوهج لكن سرعان ما ينطفئ..

ابن خلدون

❀❀❀

إهداء

لك أنت..

أحمد

❁❁❁

لحظتان لن تنمحيا من ذاكرته: اللحظة التي غادر فيها مسكن هيلدا بعد سهرّة دافئة، فيما كان النّهار يتمطى مشرئباً خلف نافذة مكتبه، عندما أُعتقل!

واللحظة التيص كان فيها النّهار يذّوي، والشمس تتهاوّى خلف الأفق الغربي، فيما الجنكويز يدفعونه إلى داخل الزنزانة، فيطوي ليل البلدة، آخر النّهارات المسكونة بصمت النّاس وبؤسهم، الذي انفجر بغتةً على هذا النحو المدمر! فتلاشي كل شيء داخل انفجارات تيار غضبتهم العارمة!..

طرق على الباب بتوتر.. جاءه صوت هيلدا من الجانب الآخر:

"حاضر، حاضر لحظة.."

وتقدمت خطاها في شرايينه، وقلبه ينتفض بشدّة!

وفيما كان جادين جانو يسترد أنفاسه من النيران التي أشعلتها هيلدا، كانت هتافات غفيرّة تنعقد في قبة البلاد الأسيرّة، والجموع تعتصم أمام القيادة العامة لقوات "الجنكويز" فيما صوت قطار دار صباح يهد القضبان هداً، ويمضي دون توقف.. يبطىء ليركب عمال المدن، كلات المواني، المراكبية، حشاشة القصوب، تربالة القرى

فلاحين البلدات خارج التخطيط، تلاميذ المدارس، الأفندية، ليفرغهم جميعاً في ميدان الاعتصام!

وقبل أن يتوقف الهتاف والقصف، كانت الأرض قد زلزلت زلزالها، وتبين للمريود والمعتقلين الآخرين، انهيار جدران السجن!

كان الأهالي المغبونين قد اندفعوا يحطمون الجدران المتداعية للزنازين.. تدفقوا يلتحمون بهذا السيل الهادر، لنَّهرٍ من أرواح أبطال عشراتِ العصور، التي تعاقبت على البلاد الأسيرّة.. انبثق في هذه اللحظة الكونية الخالدة، من مسام القبل الأربعة!

الثوار المسلحون يقودهم الخزين، حملوا أسلحتهم ومضوا، يحمون الجموع الهادرَّة، التي كان يقودها صانع الفخار، ويفسحون لها الطريق، لدك آخر قلاع وحصون، آخر حاكم عام ينحدر من أسرَّة المقدس سره المالكة، تسبقهم هتافاتهم وهم يحملون طيفاً متلاشياً على أعناقهم، يشق هتاف روحه عنان السماء، ويرج الأرض رجاً:

انطلق المتظاهرون، ومزيداً من الجماهير الثائرة، تنشق عنهم تغريدات "ود دَبرك".. تنشق عنهم كتب التاريخ والحكايات والأحاجي.. تنشق عنهم الأرض، ويتقدمون الصفوف، ممسكين بأيدي بعضهم البعض، وهم يحملون بين جوانحهم أشباح أحبابهم. كانت صدورهم عارية،

وهتافاتهم تشق فضاء البلاد الأسيرة الرَّحب، كغضبة رياح الهبباي الجسورَّة، وعيونهم تلمع كالبرق العبادي المخاتل!

جاءوا من كل فج..

خرجوا من زقاقات "البلدَّة القديمَّة".. من ساحة صانع الفخار العتيقة، وميدان الحرّية، وبيوت القش والصفيح في أطراف المدن!

جاءوا من حواري المدينة الزَّاهية.. ومن "أندايات" البلاد الأسيرَّة.. جاءوا من فرقان و "حلالات" دار الريح، ومن "كراكير" الجبال والوديان، جاءوا!..

ومن غابات الصعيد، ومن أسفل النَّهر، جاءوا..

ومن دار صباح حيث تشرق شمس البلاد الأسيرَّة، شحيحة ومنهكة! وتوحدوا جميعهم: المشردين، السجناء السياسيين المخضرمين في سجون "الترح و تور الجر" خرجوا من بين سطور مذكراتهم، الكنداكات طالبات الجامعات، الأهالي الذين فقدوا ملامحهم، فاكتسبوا ملامحاً جديدة، نبلاء "كليوة البائدة"، الباعة على قارعة الأرزاق، في الطرقات والأرصفة، الساعاتية الذين كانوا يمارسون إصلاح الساعات، في برندات المحلات، فلم يعد مجرى الزَّمن مفهوماً بالنسبة لهم، فهجروا طبلياتهم، وودعوا هذه

المهنة اليائسة بحزن، حملوا عدة شغلهم الدقيقة، واندمجوا في مسارات الجموع.

مفلسين المحطة الوسطى، الذين ينتظرون مواصلات لا تأتي في محطة المليون عاطل، الفنانين البؤساء في شارعي النيل و الغابة، و"أتني" على المصاطب وتحت أشجار اللوعات والأسئلة، هؤلاء الذين دأبوا على رسم وجوه ملتاعة غامضة، خدد الحزن قسماتها، يرسمون الآن وجوّه غاضبة، وينحدرون مع السيل..

باعة الكتاب المفروش على الأرض، والباعة المتجولين والمهووسين من صغار الجنكويز، الذين يوزعون منشوراتهم الدينية، في المواصلات العامة، يخيفون الناس من عذاب القبر، وأهوال يوم القيامة، هذا القبر الذي دفنوا فيه الأهالي أحياءً، ليقيموا قيامتهم على أرض وقائع ما جرى ويجري من عذاب، أدركوا للتو هُراء اعتقاداتهم، فاندرجوا في الزحام!

الباعة في سوق الفواكه المعطوبة، بائعات الشاي والتسالي والفول المدمس والطعمية "والدَّكوة" في الأسواق الشعبية، والمتسولين والمعاقين.. ضحايا الحروب الأهلية والأخطاء الطبية الفادحة، والبيئة الصحية الكارثية، تصدروا الجموع!

بائعات الهوى المنتشرات عند منحنيات الشوارع والدروب، وفي الزِّحام العام، والميادين التي ضاقت بما رّحب الوطن، وزبائن محلات الفول والأقاشي والشاورما المغشوشة!..

كانوا جميعا كأهل الكهف، يفيقون الآن من نومِ عشراتِ السنوات، لا يأبهون لعربات الردع الجنكويزي، التي اختبأت في زوايا الشوارع، والزقاقات، مستعدة لإطلاق آلاتِ القمع في أي لحظة.

تدفقوا كسيل عارم يجتاح كل شيء: مأساتهم الاجتماعية العميقة، وادي الآلام.. قوز المراثي.. ود أم جبو.. كتب التاريخ الزائفة.. سهول الأحزان.. شجرَّة اللعوت سيئة الرائحة.. بيوت الأشباح في القلعة العريقة.. القيادة العامة لقوات الجنكويز المسلحة، المخطوطات الزائفة.. تقارير المنظمات الدولية.. قبور المقدس سره وأسلافه وأحفاده، في مقبرة عائلته البديعة.

جرف الثوار والمتظاهرون واحرقوا كل شيء، فلم يتبق سوى الآثار الدارسة لحيّاة بكاملها، في عصور بكاملها.. كانت هنا ذات عصر، متداخلة بشكل أربك حياة أهالي البلاد الأسيرة!

من هنا ذات زمان.. ذات مكان، نهضت بلاد كبيرَّة أخرى، من رماد حريقها انبعثت من جديد، شعباً نبيلًا واحداً

وأرضاً شاسعة موحدة! لوح لها صانع الفخار بكفه، تلويحة أخيرة واختفىٰ، مبتسماً. في المدىٰ اللامتناهي لأفق البلاد، الشجن!

التي وللمرة الأولى عبر تاريخها تصبح وطن! لكن ما الذي جرى قبلها، وقاد إلى كل هذه الوقائع والأحداث؟

❁❁❁

عصبوا عينيه، داخل العربة الصالون المظللة، واجلسوه منكفئاً على ركبتيه، فلم يستطع تحديد وجهتهم!

عندما توقفت العربة وسط فناء واسع، رأى جداراً عالياً، وشم رائحة النّهر، فأدرك أنها القلعة.. سجن القلعة..

أفرغوا جيوبه من محتوياتها، وقادوه من الفناء ذو الأسوار العالية، عبر دهليز طويل إلى غرفة، لم يستطع في العتمّة تحديد مساحتها أو محتوياتها لوهلة.. ثم تبين فيها أشباح لمعتقلين كُثُر!.. دفعه أحدهم بقسوّة، فخطا إلى الداخل وهو يترنح!

دهمت خياشيمه رّائحة زّنخة.. مزيج من رّائحة إفرازات بشرية وجرذان ميتة!.. شعر باختناق قاس في رئتيه، وبشئ يتسلل داخل ثيابه، يقرصه بغتةً، فانتفض.

ناداه شبح أحد المعتقلين:

"تعال هنا، اجلس قربي"

لم تكن عيناه اعتادتا العتمّة بعد.. مشى ناحية الصّوت بحذر، خشية أن يتعثر في أي شيء!.. عاد الصّوت مرةً أخرى يسأله:

"أنا علي علوب، ما اسمك أنت؟"

جاهد اخفاء ارتجاف نبرات صوته وهو يرد:

"جادين.. جادين جانو"

"ما الذي جاء بك إلى هنا؟.. دولارات؟"

تحسسه شئ، تبين فيه سيجارّة، كان قد مدها له علي علوب..

"لا، أنا موظف بمعهد جار النبي جارو لأبحاث التاريخ ودراسات الآثار"

ضحك علوب ضحكةً ساخرّة..

سمع صوت احتكاك عود ثقاب وهو يشتعل، ورأى على ضوءه الوجه النحيل لمحدثه، الذي أشعل السيجارة وأخذ نفساً عميقاً.. ثم خرج صوته يبدد الدُّخان المنعقد حذاء وجهه:

"قلت لي آثار؟ وهل تركوا لنا آثار؟"

فتذكر جادين الشاعر "حُميد".. ومرّت على خاطره أشعاره كلها دفعةً واحدة!.. أبعد السيجارّة عن شفتيه، وهو يتنفس بحرقة:

"الحقيقة أنا مهتم بالآثار والتاريخ.. أدرس المخطوطات"

مرّة أخرى ضحك علوب وهو يسأل:

"ولماذا تدرسها؟"

رد دون تردد:

"لأجد تفسيراً لكل هذا الذي يحدث لي، لك.. لكل النّاس في هذا البلد! لابد أن ثمّة إجابة ما في الماضي"

بصوت مقتضب سأل المعتقل:

"وهل وجدتها؟"

كانت أسئلة علوب مقتضبة، حادة، حاسمة..

ساد صمت عميق وهو يتأمل سؤاله.. أحس بشيء يتسلل بنطاله، نفض ساقه بشدة شعر معها بعلوب هو الآخر ينتفض، فقال بصوت خافت:

"آسف"..

ضحك علوب ضحكة واهنة:

"لا تتأسف، سرعان ما ستعتاد البراغيث والجرذان، لو طال بقاؤك هنا.. سيصبحون أصدقائك الدائمين"..

سرح جادين بخياله، كان قد شارف، على فك بعض رموز المخطوطة التي خلفها الخزين وراءه، وربما كان سيتوصل إلى نتائج مهمة، لكنه الآن هنا.. شأن كل شيء في هذه البلاد المسجونة، المعتقلة، الممزّقة!.. كل شيء فيها غير قابل للاستكمال! أوليس تاريخها عبارّة عن تمزقات متصلة؟!

منذ عرفت هذه البلاد "النظام والسلطة"، ظلت أطرافها في الصعيد والسافل ودار الريح ودار صباح، معزولة عن مركزها في الوسط، الذي لطالما ارتبطت به فيما يشبه الاتحاد الواهن!

هذا الاتحاد الذي ظل شعب البلاد الأسيرّة في "قبلها الأربعة" يراقبه في صمت حذر، تتناهشه الهواجس والظنون! مثله الآن، يتحسب مجيئهم في أي لحظة للتحقيق معه!..

التحقيق حول شيء ربما لم يخطر على باله!.. ترى هل يتهمونه بالعلاقة مع إسرائيل أو العمالة للغرب؟! فقد أصبحت هذه تهماً جاهزة، لتبرير إغلاق المراكز الثقافية والمعاهد البحثية!

فقط عليه أن يتحسب، كما ظل شعب البلاد الأسيرّة في حالة من التحسب الدائم، طوال تاريخه يتحسب.. ويراقب ما يجري، دون أن يقول كلمته الفاصلة!

متى بدأ ينتبه؛ وتتناسل داخله جرثومة التحسب؟..

أهي تلك اللحظة، التي أوعز فيها يهود السلطنة العثمانية، للباشا محمد علي، بالاستيلاء على كنوز البلاد الأسيرة ونهب مواردها؟!

اليهود يشمون رائحة الكنوز أينما وجدت! ولذلك وصل "ديفيد روبيني" أول رحالة يهودي إلى البلاد الأسيرّة في ١٥٣٠م ومن ثم توالت هجرات اليهود..

جاءوا من كل أنحاء سلطنة آل عثمان.. عملوا كممثلين تجاريين، لبعض الشركات المصرية الطامحة للتوسع جنوباً، وانتشروا حتى وصلوا "دار الرّيح" البعيدة، حيث تغرب شمس البلاد الأسيرّة منهارّة، ذاوية!.. وهناك طاب لبعضهم المقام واستقروا.

بل غير بعضهم دينه واسمه ليعيش وسط الناس واحدا منهم! ولم تنقطع هجراتهم. ظلوا يتوافدون الى أن تكاثرت أعدادهم، فتم الاعلان رسمياً عن تكوين جالية يهودية في ١٩٠٨ بوصول الحاخام "سولومون مالكا" من مصر، والذي عمل كبيراً للحاخامات؛ إلى حين وفاته في عام ١٩٤٩ بينما ظل موسى بسيوني -مؤسس أول معبد يهودي في أمدرمان- رئيساً للجالية اليهودية حتى وفاته في ١٩١٧.. كل ما أبقاه على قيد الحياة، فقط انتظار وعد

اللورد بلفور؛ بالوطن القومي للشعب المختار!.. تلقى الرجل الوعد ورحل!

ترى ما الفرق بين "الجنكويز" واليهود؟.. كلاهما لا يعترف بالآخر، وكلاهما لا وطن له، يحاول أن يزرع نفسه بالقوّة، وبطرق غير مشروعة، في أرض ليست أرضه!

الفكرة نفسها، التي تبناها العرب، بزراعة أنفسهم في أرض اسبانيا! ومع ذلك أخذ الحكام "الجنكويز" المتعاقبين، المتحدرين من سلالة المقدس سرّه، يغذون مشاعر الكراهية بين شعوب البلاد الأسيرّة ضدهم!

وبتنسيق أميركي إسرائيلي مصري مع "الجنكويزي" حفيد حاكم عام البلاد الأسيرّة وقتها، تم ترحيل اليهود الفلاشا من دار صباح إلى إسرائيل في ١٩٨٥ ومن ثم تم هدم المعبد اليهودي بالخرطوم في ١٩٨٧ بعد أن استولى أحد المصارف "الجنكويزية" على الأرض، التي أُقيم عليها ذلك المعبد، في صفقة عقارية شابها الغموض!

وبهذا أُسدل الستار على نفوذ ووجود اليهود في البلاد الكبيرة؛ مخلفين وراءهم ما هو أسوأ - تركة المقدس سره: "الجنكويز!"..

❀❀❀

أنا "ود دَبرق بن زرزور الدّوري"، كنت موجوداً صبيحة أُحرق صانع الفخار! وكنت موجوداً أيضاً عندما داهم عسس "الجنكويز" معهد جار النبي جارو، واعتقلوا جادين جانو.

كنت لحظتها أُغرد أعلى شجرّة الجهنمية الحمراء، التي تمد أغصانها إلى مكتب جادين جانو.. أنا الشاهد الوحيد على ما حدث!..

ألا تصدقونّي؟!..

لقد سمعته وهو يقول:

"بعضهم قُتلوا داخل بيوتهم!"

قال بروفيسور محمود، وهو يمعن النظر في وجه جادين، الذي كان منهمكاً في قراءة التقرير. وقد بدى كأنه لم يسمعه، إذ استمرّت عيناه تلتهم السطور: ... أفاد أن "الجنكويز" وصلوا مع القوات الخاصة بالمقدس سرّه في يوم السوق، حاصروا الأهالي، ثم دخل بعضهم إلى السوق، لنهب الأموال والمواشي، ومن ثم بدأوا يقتلون الأهالى، عشوائياً دون تمييز.

وقد رأى الناجي الوحيد بعينيه الجثث:

"بعضهم قتل باطلاق النار، وآخرون طعناً بالحراب"..

فيما أفادت احداهن:

"لقد كنت مع والدي، عندما وصل الجنكويز فجأةً إلى القرية، في تمام الساعة السابعة صباحاً، أخذوا يطلقون النار في كل الاتجاهات، هربت لأحتمي، ولكن أُصبت في قدمي اليسرى، وقُتل والدي داخل منزلنا، كذلك قُتل والد زوجي، كان "الجنكويز" على ظهور خيولهم وجمالهم"..

ويضيف زعيم عشيرّة في المنطقة، مشيراً إلى إحراق خمسين قرية، وقتل ما لا يقل عن ألفين مواطناً! في الهجوم الأول، الذي كان مدعوماً بالمروحيات، مؤكداً أن حاضرّة دار الريح، على تخوم الصحراء، والتي تبعد عنهم بحوالي ثمانين كيلو متراً، كانت هي الأخرى مسرحاً للهجمات المتكرّرة، إلى أن أنقذتها طائفة "صانع الفخار" فاحتلتها وأخذت تدافع عن سكانها، لكنها أمام ضغط الجيش الجنكويزي بفرقه المختلفة، اضطرت للانسحاب تجاه الصعيد..

"ومع ذلك ظلت المدينة، تتعرض للقصف الجوي، والاجتياح البري من آن لاخر"

وقد بدى واضحاً أن الهدف هو: تفريغ المدينة من سكانها!

❀❀❀

أنا المنشق المريود جبر الدار المريود، والمريود جدي كان اسمه رجب، لكن نساء البلدة القديمّة كنينه بالمريود، وتلك قصة طريفة، إذ كان جدي رجب، ماهراً في نسج شباك صيد السمك، وفتل الحبال، ونسج المشلعيبَات والبروش والنُطوع، التي تُضاهي في نعومتها منسوجات الحرير الصيني والفارسي والهندي. ولأنه كان بارعاً في نسج النطوع، التي تستخدمها النساء في الدُّخان لشد أجسامهن، و تعطير فروجهن، وجعلها أكثر ضيقاً، لامتاع أزواجهن، كن عندما يقصدنه يقلن له بحياء، وقد خفضن مقانعهن وبراقعهن:

”نريد نطعاً يرفع راسنا مع المحبوب“

كان جدي ذكياً لماحاً، ورِّث الذكاء عن أسلافه نبلاء "فاز" الغابرين، فيفهمهن.. ثم أصبحن ينادينه برجب المحبوب، وبمرور الوقت أخَذن يكتفين فقط بكلمة ”المريود“ إلى أن حل إسم المريود محل إسمه!

❁❁❁

وكما انقسم أهالي البلاد الأسيرَّة بسبب العراب وهو حي، ها هم ينقسمون بسببه الآن، إلى فريقين وهو ميت! فما أن نعى النّاعي العرَّاب، حتى سارع الجنكويز، الذين لا زالوا، تصلهم بآل المقدس سرّه أشواق و تهويمّات، يترَّحمون عليه وهم يرددون:

"الرجل صار في ذمة الله، إن أخطأ أو أصاب، لا تجوز عليه سوى الرَّحمة، فقد صار بين يدي الله"

هذا الميكانيزم الدفاعي، الذي ألقاه الجنكويز بوجه النَّاس، لم يجعل الفريق الثاني الذي قوامه السواد الأعظم من أهالي البلاد الأسيرة، يتراجع عن صب جام لعناته، على العرَّاب وكل سلالته الخبيثة، وأتباع هذه السلالة، التي وصفها في فورَّان غضبه عليها بـ"المارقة!"

ولم يُخفي أهالي البلاد الأسيرَّة كذلك غبطتهم لسماع هذا النبأ العظيم، برحيل العرَّاب غير مأسوف عليه، إلى أسفل سافلين، جزاء ما اقترفت يداه الملوثة؛ بدماء الملايين من أهالي البلاد الأسيرَّة شيباً وشباباً وأطفالًا ونساءً! أو هذا ما كان يقال تحت أسقف البيوت الواطئة، والأزقة المظلمة!

كان العرَّاب قد أصيب بذبحة قلبية، إثر يوم عمل شاق بدار "حزبه الجنكويزي" بُعيد عودته إلى منزله، قُبيل مغيب الشمس بقليل!

ومنذ اللحظة التي بدأت أسرته؛ تتداول مع الأطباء فيما أصابه، حتى تسرَّب الخبر، وانتشر وشاع بسرعة البرق!

كأن أهالي هذه البلاد من الحقد، لدرجة أنهم كانوا ينتظرون هذا الخبر، على أحر من الجمر؛ منذ سنوات طويلة!

انتشر الخبر عبر التليفونات، ووسائل التواصل الاجتماعي، أجهزة الإعلام الجنكويزية الرَّسمية، في مشهد لم يتكرر، منذ تآمر العرَّاب وتور الجر الحاكم العام الجنكويزي معاً، على اغتيال صانع الفخار، زعيم مقاتلي الصعيد، قُبيل الانفصال!

تقاطر الجنكويز من كل مكان: جاءوا من ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء، ومن "القبل الأربعة".. جاءوا، يعزون أسرَّة الفقيد، و يلقون عليه نظرَّة الوداع الأخيرة، قُبيل أن يُقبر الثرى وإلى الأبد، وتنطوي معه أسوأ صفحات تاريخ البلاد الأسيرّة!

أو هذا ما توهمه الأهالي، وهم يشيعون جثمانه باللعنات، التي كانوا يأملون أن يتقلب عليها كالجمر، داخل قبره كثيف الظلمة، شديد البرودة والوحشة!

إذا كان مشروع العراب هُراء، إذن لماذا يصر هذا الفرنسي الغريب؛ في هذه اللحظة بالذات التي مات فيها

العراب، أن يحتفل بعيد ميلاد ابنته في أهرام البجراوية؛ ويقيم لها كل طقوس ديانة بائدة غامضة؟!

وإذا كان هُراء، عندما هُدمت أهرام البجراوية للمرة الأولى، هل كان ذلك فعلًا بحثاً عن الذهب، الذي سال له لعاب الباشا الكبير، أم كان بحثاً عن شيء آخر، لا يعلمه مؤرخي البلاد الأسيرّة؟

وتلك "المسلات" التي لا تكاد تخلو منها مدينة من مدن البلاد الأسيرّة، حتى نصب الجندي المجهول في قلب المدينة الزّاهية، هل هو رمز لدين قديم انطوى كسر في جوف التاريخ؟..

وتلك الحمى؛ التي انتابت الحاكم الجنكويزي العام الأسبق، فأعلن نفسه إماما للقرن.. هل هي معزولة عن هدمه لمسلات حوش الخليفة؟.. أم أنها أم كواكية نفسها في نسختها الأولى والثانية بمقولاتها الغريبة: هل تتصل فعلًا بالروح العظيمة؟ أم أنها تخفي بين مقولات مقتفي الأثر والجماعة، ديانة قديمة انطوى عليها تاريخ البلاد الأسيرّة؟

وما الذي أخفاه الجنكويزي الكبير حين قال:

"... واعلمني الروح العظيمة بأنني المقدس سرّه واخلفني بالجلوس على كرسيه مراراً"

ما هو مسكوت هذا الكلام؟..

وهل هذا الذي ظنه تشرشل هو ما حدث بالفعل، أن الرجل:

"وضع في قلوب قومه الروح والحيّاة، وحرّر بلاده من الحكم الأجنبي. إن بسطاء الناس الغلابة، الذين كانوا يعيشون شبه عُراة، وقوتهم لا يخرج عن كونه بعض الحبوب الجافة، فجأة وجدوا معنىً جديداً للحيّاة، بعد أن استطاع أن يغرس في صدورهم الحس الوطني الجارف، والوازع الديني القوي"..

إذن لماذا وصفهم في الآن نفسه بأنهم: "أعداء الله؟!"..
كيف يكون وازعهم الديني قوي، وفي الآن نفسه يناصبون الله العداء؟!

هل حقا الأمر كان كما رآه تشرشل، أم كما رواه غردون:

"يجد المرء تسلية في تصور هذا المزيج العجيب، من البشر، الذي يرافق المقدس سرّه: أوروبيون قساوسة وراهبات. اغريق وضباط نمساويون"..

أي نوع من الأديان، هذا الذي يجمع ويوحد أديان مختلفة؟.. ولماذا اضطرب المقدس سره وتلجلج لدى سماعه بمقتل غردون، هل حقاً كان جاداً في مقايضته بعُرابي؟ أم أن ثمّة ما هو أعمق من ذلك مشتركاً بينهما؟

ولماذا مات المقدس سرّه سريعاً بعد سقوط المدينة الزّاهية؟ هل كان موته طبيعيا؟ أم أن مهمته انتهت فسُمِم؟.. ولماذا أمر كتشنر بعد استرداد المدينة الزّاهية، بإخراج بقايا المقدس سرّه من القبر العميق، في الغرفة التي توفي بها، ثم احرقها وفرق رمادها في النيل!

هل كان ينتقم لغُردون باشا، أم كان يؤدي طقوس ديانة قديمة كذلك الفرنسي؟ وكيف ينتقم إذا أراد، من برئ! فهو يعلم أن المقدس سرّه كان أحرص على حيّاة غُردون؟

وهل قائد بقامة كتشنر، ينساق لانتقامٍ بهذا البؤس؟ وهو الغازي الذي يرغب في كسب ود هؤلاء الأهالي المساكين، أما كان الأحرى به الانتقام لهذا الشعب من الجنكويزي ود تورالجر الثاني؟

إذن بموت العراب حفيد المقدس سره كانت فضاءات البلاد الأسيرة تحتقن، وتنذر بأن ثمة شئ ما.. يفصل بين عصرين سيحدث في أي لحظة!

❁❁❁

قُبيل الفجر بقليل، تقدم خاتم الدولة بجيشه من أبواب "كليوة" العاصمة التي أنهكتها "عسل الجنة" كُبرى زوجات الملك الرّاحل، والتي كانت ترى أحقية ابنتها الفاتنة، بمُلك "كليوة" خلفاً لأبيها، الأمر الذي لم يرق لأمراء الأسرّة المالكة، الذين تدنفوا بعشقِ الأميرة ابنة الملك القتيل!

وعندما أدرّكت "عسل الجنة" أن ما ظلت تحلم به طوال عمرها، في أن تصبح ابنتها الملكة، هو أقرب لسرابٍ يحسبه الظَمئآن ماء! أصابها الغبن الشديد فقررّت الانتقام!

وهكذا أغرت أمراء ونبلاء كليوة بأنها ستزوج الأميرة، لمن استقر الملك بين يديه! فأخذوا يحيكون المؤامرات، ويدسون الدسائس ضد بعضهم البعض!

وفيما هم منشغلون بالصراع على الأميرة والمُلك، كان جواسيس "ختم الدولة" قد رفعوا إليه تقاريرهم، وهكذا اقتحمت جيوشه المدينة، من كل الاتجاهات.. تدمر وتحرق كل شيء في طريقها، لتصبح "كليوة" أرضاً محروقة! خالية من الحيّاة! لم يبق فيها ختم الدولة على شيء!..

فكل شيء أصبح أثراً بعد عين: الكنائس، قصور المَلك والأمراء والنبلاء.. دور الأهالي الغُبش.. أياقين العظيم ود دَبرق، تمثال الإله ابادماك وصقر الجديان، اللذان كانا

يزينان معابد المدينة المحروقة.. شجرَّة الجُهنمية الحمراء التي بنى فيها طائر الجنة الملوَّن عشه!..

وبعد أن أسر خاتم الدولة، الأميرات وبنات النبلاء، أمر جنده بإشعال النّار، في كل أركان المدينة! فانتشر حريق مهول، استمر لأيام يلتهم بألسنتهِ، التي لم يخف اوارها كل أثر: بقايا المعابد والكنائس والقصور.. الحدائق والبيوت والأسواق.. كل شيء تحول إلى رماد؛ كأنه لم يكن حضارة، بكل مركبات عناصرها المتنوعة! ذات يوم!

انمحت "كليوة" من الوجود، وتحوّلت إلى رماد، فيما جيش خاتم الدولة قد غادر المدينة، ليعَسكر على مبعدة منها! وكانت كلما تضاءلت شعلة الحرائق، يأمر جنده بتغذيتها من جديد!

بُعيد سقوط المدينة مباشرّة، وفرار الناجين من أمرائها ونبلائها، وتفرقهم في جهات دار فاز ودار الريح والصعيد والسافل، أمر خاتم الدولة جنده بمطاردتهم واللحاق بهم، وألا يتركوا منهم أحداً على قيد الحيَّاة!

بعض الأهالي الذين أصابهم الرٌّعب، لهول ما رأوا، أعلنوا تبنيهم الدين الجديد في الحال! والذين فروا في لحظات الهجوم الأولى، ناجين بجلودهم. تفرقوا في أصقاع البلاد الأسيرّة، واختلَطوا بشعوبها، وبمرور الوقت لم يعد منهم، من يذكر اسم موطنه "كليوة" وأصله الفازي العريق إلا

لماماً، فقد اندفن داخلهم حنينهم للوطن القديم، وانحفر في وجدانهم نوع غريب من الأسى والشجن! وعندما تثور داخلهم لوعة الذكريات، يقسمون على بعضهم بكليوة فيقولون:

"اقسم بكليوة القمربوبا، بلد الجد والحبوبة اللي يغطس الحجر، ويطفح الكركعوبة"..

ثم لا تفتأ ذكرياتهم تتراجع، أمام ضغط حاضر المنفى الذي يعيشونه، فيتراءى لهم أمل إعادة مجد أسلافهم يوماً ما.. في زمن ما، مستحيلاً تماماً!

بعد مئات السنوات الشئ نفسه سيحدث لأحفادهم في دولة "تور الجر" الجنكويزي الثاني، إذ لن يكون غريباً على الأهالي المناصرين لتور الجر قبل أن تدور بهم الدوائر، أن يتحولوا إلى مناوئين، يربطهم على شِعَب الأشجار الجافة، حتى أن العابرين يرثون لحالهم ويسعون لاطعامهم خلسة من جنده، والدموع تسيل على خدودهم المتغضنة!

كان تور الجر يمعن في تعذيب بعضهم، بالجلد بأغصان الشوك حتى الموت، أو يضعهم في غرف ضيقة لا نوافذ لها، تلقى عليهم العقارب داخلها، ويمنع عنهم الماء والأكل، إلى أن تنقطع تأوهاتهم وحشرجاتهم. ويوزع زوجاتهم وجواريهم على رجاله.

وكان جنده عندما يداهمون أحد قادة الدولة المغضوب عليهم، لا يعطونه الفرصة ليلبس "مركوبه" فيجرونه حافياً، وفي طريقه إلى السجن يُضرب ويُدفع دفعاً، لا يأبهون لسقوطه.

كان تور الجر حاكماً عاماً رهيباً، صادر أقوات الأهالي وغلالهم لاطعام جيشه من الجنكويز، الأمر الذي دفع المزارعين للكف عن الزراعة، فما لبثت أن أصيبت البلاد الأسيرّة بمجاعة طاحنة. فبحث النّاس عن أي شئ يأكلونه، فأكلوا حتى الجلود الجافة وورق الشجر!

كما كان تور الجر يحب التقليل من شأن رجاله الذين لا يستلطفهم ولا يجد قرينة ضدهم، كالأمير "أبو زنود" الذي لم كان كلما رآه يخاطبه بسخرية:

"انت يا أبو زنود هُوين اخوانك، لمتين بتدس من الموت"

وعندما انتقل أبو زنود من جواره إلى احدى ضواحي المدينة الزاهية، أرسل له أحد مساعديه يراقبه. فكان يسئ إليه كثيراً. فقد عزله من قبل من الاقطاعية التي كان يحكمها، وأرسل أحد البغاث ليحل محله، كما عزله من سلاح النّار، وولى عليه أحد عبيده، وابدل محصلي الضرائب بعبيده، أو من دفع له أكثر. فانتشرت السرقة والرّشوة في سائر البلاد الأسيرة.

وختم على حياة الأمير أبو زنود بالانتحار بارساله لفتح الدولة المجاورة أسفل النهر، في جيش قوامه ثلاثة ألف من الأطفال والنساء، بدون مؤن! فشاهد من نجا أبو زنود يصاب بالدوار بسبب الجوع والوهن، بعد أن كبر للصلاة وجلس على الأرض.

يبدو أن تاريخ البلاد الأسيرّة، منذ سقوط "كليوة" ظل يدور في حلقة جهنمية، سرّيان الزّمن فيها ينطلق من النقطة نفسها، ليعود إليها مرّة أخرى، فيتشابه السلاطين والممالك والجنكويز والأهالي، فلا فرق بين المكوك والخلفاء والحكام العامين، الذين تعاقبوا على حكم البلاد الأسيرّة!

تتبدى وجوههم جميعاً في فضاء الزنزانة، وكأنهم يخرجون ألسنتهم لأهالي البلاد الأسيرّة، وهم يهزون أذونهم كاطفالٍ أشقياء، لكن من نوع خاص.. غير إنساني، لا يملك مشروعاً لكل الناس، خبراته الموروثة.. كل خبراته في الهدم والقمع والنهب!

يبدون جميعهم في التعامل مع هذه البلاد كأنها ضيعة.. ملكية خاصة ورثوها عن آبائهم، ليس لأحد الحق في مشاركتهم خيراتها، فلا أحد من أهل البلاد الأسيرة "مواطنا" في هذا "الوطن" وكما قال أحد المقدسة أسرارهم "نحن الملوك وهم الرعية؟!" إذ تعني عبارته الشعب وليس الغزاة.

فيما كان ود دَبرق، يتأمل وقائع ما جرى، كانت عشوشة التي درجت على انتظاره طوال سنوات عمرها، تحس بوجوده القريب، الكائن فيها!..

أبداً لم تُخب إحسَاساتها بوجوده الطاغ حولها يوماً، ولكن ما من أحد في قبائل الطيور، كان يُعير انتباهاً لذلك، واليوم تأكد صدق إحسَاساتها، فهاهو ود دَبرق يشق عباب الهواء بجناحيه!

منذ أسابيع كانت تسمع زقزقته تحملها الريِّح، وهي تُلامس أهدّاب عشها.. زقزّقة حميمة كعادة ود دَبرق، تتخلل القش، لتلقي على مسامعها أغنيات الشوق والحنين لجسْمها النحيل وعشّهما الدافئ!

وفيما كانت هذه الخواطر تترى على بالها، وهو يحلق تجاهها، كانت ذاكرة ود دبرق لا تزال عالقة، في الأزمنة المتداخلة للوقائع والأحداث التي عاصرها، أو شهدها طوال حياته. وهو يكرر لنفسه:

"أنا ود دَبرق أُقسم بأبادَماك، أنني سمعت ورأيت كل شئ!"..

نعم رأيت وسمعت كل شئ، من موقعي حيثما أتلصص! من أعلا نوافذ القصر الملكي، أو غصن شجرَّة رَّامية بفروعها على نوافذ مقار العسس السرّي، أو تلك الكوَّات

الصغيرّة اليتيمة في زنازين المعتقلين، الذين "فنقست" بهم الدنيا، أو ذلك الرَّف في الغرفة السرّية لمولانا الشيخ الهميم، أو في الفراغ بين السقف والجدران، حيث أضم حفيف جناحي على جسدي بهدوء، فلا يشعر بي أحد، أو.. انسرِبُ –كما أفعل دائما– بجسدي في هدوءٍ وأسمعَهم، يتجادلون.. ترتفع أصواتهم وتخفت. يتآمرون ويقتسمون الغنائم، ويخططون لمزيد من النهب والقتل والتعذيب!

رأيت كل ذلك، ولطالما رويته لكم وَمخالبي الصغيرّة تتشبث بسلك الكهرباء، أو بين فتحاتِ عمود النّور، أو الخشبة البارّزة من البرندة، أو نوافذ بوفيهات الصحف.

حكيت لكم كشاهد عيان وأنا أزقزق على حبل الغسيل، أو شجرّة الليمون، لكنكم لم تأبهوا! بل عمد أطفالكم إلى رميّي بالنبال! لم تفهموا ما أقول!.. لم تتركوا لي ما أقول!

نفض "ود دَبرق" من رأسه هذه الخواطر التي لا تفارقه، واستل جسده النحيل من جسد "عشوشة"، الممددة تحته في نعومة رّيشها، بعد أن ارتخت أعصابهما وهمدّت، وحلق كطائر البلدة القديمّة الخالد وهو ينسلخ، موخوزاً بأشواكِ شجرَّة الجُهنميّة الحمراء، التي نمّت محل شجرّة (اللعوت) سيئة الرّائحة، تلك التي صُلب على فروعها (صانع الفخار) الأول وأحفاده عصراً إثر عصر، وحلق مثله، يقطر من ريشه الدّم، ومن عينيه الدموع!

في غياب ود دَبرق الطويل، كانت أيام عشوشة تمضي على وتيرة واحدة، لا شئ سوى البحث عن قوت لفراخها، الذين لا تتذكر آبائهم العديدين!

لكن ربما تتذكر بعضهم لماماً، فهي رسمياً زوجة ود دبرق، الذي لا تعرف ماذا يفعل في غيبته الطويلة، ربما حط رحاله الآن في بلاد الثلوج أو عند غابات الاستواء، يضاجع ما يحلو له من عصافير البلاد الباردة أو الدافئة!

فود دَبرق الذي تعرفه، يتمتع بذوق بائس لا فرق عنده بين حسناوات العصافير وبغاثها، فهو يؤمن بحكمة الطيور المأثورة "الفحل لا يعاف!" والأمر كذلك، لا يضيرها أن تشبع رغباتها مع الطيور المهاجرة والنازحة من آن لآخر، وتنشغل برعاية بيضها، وإطعام صغارها زُغب الحواصل، وتعليمهم الخطوات الأولى في القفز والطيران، وتقنيات الإفلات من صائدي العصافير!

ومع ذلك لم تكن كل هذه الانشغالات، بكافية لأن تطرد ذلك الإحساس الأليم، الذي كان يتملكها شوقاً لجناحي ود دَبرق، الذي ليس كمثل فحولته فحولة، بين أجناس العصافير قاطبة، في مشارق الأرض ومغاربها!

لاحق ود دَبرق لاهثاً، لحظة غامضة؛ يتفلت ضياءها داخِله، فيومِض وينطفئ كإشارات "مورس" ترسل رسائل

بعيدة؛ إلى عالمٍ آخر مُشتهىٰ، أو كأضواءِ فنارّات البحر الملوَّن، في الليالي موغلة الحُلكة.

في مثل هذه اللحظات الرَّاجفة، التي ينهد فيها حيله، يحدث له ما يشبه الكشف! تسللت سمعه زقزّقة عشوشة في شغف:

"اشتقت إليك كثيراً يا حبيبي"

فرد بصوت متهدّج:

"وأنا كذلك. اشتقت إليك كثيراً يا حبيبتي"

"أين كنت كل هذا الوقت؟!"

"سافرت مع الطيور المهاجرة، اكتشف عوالماً جديدة"

"أما أنا؛ ظللت انتظرك في عُشِّ البيت القدّيم"

ثم غرّدت ضاحكةً ضحكتها العذبة ذاتها، التي لا تُخطئها مسامعه، كانت فرحة بعودته بعد غيابٍ طويل! فأخذت تتأمل وجهه الصغير، وقد أنعكست على منقارها خيوط أشعة الشفق الهادئة:

"ود دبرك، هل ستتزوج مرة أخرى كعادتك، بعد رحيلي أم أنني آخر زوجاتك؟"

"لم أفكر بذلك مطلقا"

”حسناً، فكر به الآن“

”الآن؟ لماذا الآن بالذات؟!“

”لأنني أريد أن أعرف ذلك الآن“

”حسناً، إن أقسمت لك على أي إجابة فلن تُصدقينني. لن تصدقي سوى الإجابة التي تتوقعينها سلفاً“

”إذن، هل ستحبها كما أحببتني“

”ربما تكون مختلفة عنك، فالطيور لا تتشابه“

لَمْ يخالج عشوشة أدنى شك، أن في حيّاة ود دبرك المديدّة، الكثير من العصفورات اللاتي مررّن دون أن تخلفن أثراً، وربما خلفن أثراً، لم تستطع حاستها الأنثوية استشفَافه، لقدرّة ود دبرك البارعة في إخفاء كل أثر لعلاقاته المتعددة!

كما لم يخالجها الشك بأنها الوحيدة، من دون كل العصفورات اللاتي عرفهن، عمرَّت معه لعقود طويلة، فقد سمعت عن حبيباته وزوجاته السابقات، الكثير من الحكايا، لذلك عندما تزن حكاياتهن جميعاً مع حكايتها معه، ترجح كفتها!

كانت عشوشَة قد وُلدت على عهد الاحتلال الأول، الذي أصبحت مُنذه البلاد الكبيرة أسيرّة، يتغير الحكام واحداً تلو

الآخر، لكن يبقى الاستبداد والنهب والظلم والفقر نفسه، فتمضي البلاد الأسيرَّة من السئ إلى الأسوأ.

منذ تعلمت الطيران في طفولتها الباكرة، لم تعد تعتمد على أمها في طعامها، أخذت تطير وحدها تبحث عن حبات الذرّة المتساقطة أمام الطواحين، أو زرائب العيش، أو المزارع في ضواحي البلدة القديمة، حيث التقت ود دَبرك لأول مرّة، راكاً على قندول عيش لم ينضج بعد، تبادلا التحايا!

ويوماً بعد يوم أصبح بمثابة أب روحي لها! علمها الكثير مما تحتاجه للنجاة بنفسها في هذه البلاد العرضة للمجاعات من وقت لآخر.. علمها ود دَبرك الادخار، ورغم أنه كان يكبرها بمئات السنوات، إلا أنها تزوجته، ومنحا معاً للحياة كثير من العصافير، التي تفرّقت في أنحاء البلاد الأسيرة، فيما هاجر بعضها في قِبَل الدنيا الأربعة.

بعض عصافيرها زغب الحواصل، اختطفتهم نبال الأطفال الأشقياء، وبعضها قضى نحبه بالمرض، فيما هددّت النسور في المواسم القاحلة بعضهم.

لكن كل ذلك لم يكن يحزنها، مثلما كان يحزنها، اصطياد أولئك الشبان الذين هاجر أسلافهم من غرب أفريقيا إلى هذه البلاد، فامتَهنوا صيد السمك والطيور!

فهي إن تنسى لا تنسى كيف بيع عشرة من عصافيرها الجميلة، لأطفالٍ أشقياء بلا قلب!

لقد شهدت عشوشة في سنوات المجاعات المتكررّة، كيف يلجأ الناس لصيد الطيور، ويأكلون حتى الفئران والزّواحف الجائعة، ليئدوُن حدّة جوعهم.

لقد شهدّت الكثير من المآسي والأحزّان، وعانت غياب ود دَبرك لسنواتٍ طويلة، واقتحام أتباع المقدس سرّه للبلدة القديمة على جثث الغُزاة البيض وجيوش المستعمِرينِ المحليين الجدد بعد الجلاء، وهي تجتاح الصعيد ودار الريح!.. ولطالما رفعت يديها إلى السماء، تسأل الروح العظيمة عتق صغارها المسترّقين في الأقفاص.

تسحبت الشّمس، وغطّت بأشعتها الشاحبة، أسطح البيوت الواطئة، وبدأت تنحسر عن الأزقة الملتوية، الصاعدة إلى أعلى البلدة، والمنحدرَّة إلى أسفلها جهة النهر و "الجاسر".

لم تكن بعيدّة، هي المسافة الفاصلة، بين مسكن ود دبرق والعُش القدّيم، حيث كان يلتقي عشوشة خلسةً، من عيونِ العوازل قُبيل هجرّته!

حلّق يشق أجواءِ البلدة القديمّة الموحشة، ببيوتها المظلمة، المبنية من الطوب الأخضر والأحمّر المحروق، وطوب الأسمنت البلوك. وأبوابها المصنوعة من الصفيح والحديد

والزنك، وخشب السنط، وأشجارها غير المتناسقة. وشوارعها التي تآكل رصفها الأسفلتي، منذ أزمان بعيدة. ودروبها وطرقاتها المترّبة، التي تعج بالمستنقعات. وحيشانها وحيطانها، التي تفوح برائحة الرّوث والبَول والبعر والعرّق، ومخلفات البشر، والدجاج والحمام والكلاب والقطط!

كانت البلدّة القديمّة، أشبه بلوحةٍ قذرّة تُجسد فوضىٰ معمارية، تتداخل فيها أمزجة المستعمِرين، والسكان المحليين المستعمَرين، وأذواقهم. وتنبعث منها روائح غريبة، لا تطاق!.. تداخلت في تخطيطها ومعمارها وأشجارها، أزمنة غابرّة مع أزمنة معاصرّة، وأزمنة لم تأت بعد، ومناخات وبيئات وروائح متنافرّة، وكل شئ فيها كان بقدر ما هو مثير للمخاوف والظنون، كان في الآن نفسه مثيراً للأحزان والشفقة!

البلدة القديمّة، بلدة يخنقها الخوف والأوساخ، تحلق في الفضاءات التي تحيط، ببيوتها فتشعر بالانحناء والاختناق، وتداهمَك مشاعر مضطربة، ومختلطة لا هُوِّية محددة لها!

عند بداية الشارع الرئيسي لاح لود دَبرق مبنى الكنيسة، الذي تسكن عشوشة في سقف البيت القديم خلفه!.. مبنى كبير من الطوب الأحمر المحروق، ينتصب بين أشجار النِّيم المتفرّقة بمهابة، ولكن كئيباً وموحشاً!.. ربما أن شكله

التاريخي الغامض، كان هو ما يُسرِّب إلى النفس، ذلك الإحساس بالهيبة والخيبة، ويدفع بود دبرق للغناء (ببوحٍ) حزين!

كان مبنىٰ الكنيسة، ينهض وسط مساحة كبيرّة من الأرض، مطلاً على الشارع الرئيسي، الذي يقسم البلدة نصفين. تمتد خلفه الجروف، التي كانت الكنيسة تعتمد على الخضروات، التي تزرعها فيها اعتماداً كبيراً، إذ تطعم منها القساوسة والرّهبان والفقراء.

لم تكن الكنيسة تؤجر عمالاً لزراعة جروفِها، والإعتناءِ بها. أو لحصادِ خضرواتِها وبَطيخها وشمامهَا، إذْ كان الرّهبان والرّاهبات، هم من يقومون بذلك!

مبنى الكنيسة من الداخل، تغطت كل جدرانه، بالنقوش الملونة، التي تعود لعصور "كليوة" الزّاهرّة، والتي كانت تُعطي انطباعاً قوياً، أنها بُنيت؛ بنيةِ أن تكون أي شيء آخر، عدا الانتماء لدينٍ محدد!

ومن الخارج كان أثر النيران على المبنى واضحاً، إذ يبدو أن ثمّة محاولات لإحراقه، تمت أكثر من مرّة.. وما يلفت النظر، أن ثمّة نوع غريب من أشجار الجُهنمية الحمراء، ينمو بطول سوّر الكنيسة.. بعض الأهالي ترّسخت داخلهم قناعة تامة، أن وردة الجُهنمية الحمراء، أخذت لونها من دّمِ المسيح، فهم ليس لديهم أدنى شك، أن "حُوَّار" المسيح

الذي أقنع "الكنداكة" بتبني "المسيحية" قُبيل مغادرته عائداً إلى "أورشليم" كان قد أحضر معه شيئاً من دمٍ محفوظ للمسيح بطريقة معينة، ودفنه هنا ليلوِّن هذه الشجرّة، التي عُثر تحتها قبل أسابيع قليلة، على جمجمة لم يُعرف لها نوع أو صاحب، أثناء محاولة أحد القساوسة حفر حوض جرجير حولها!

ولم يستطع أحد تفسير وجود هذه الجمجمة هنا بالذات! مع أنه لو كانت قد وجدت في أي مكان آخر، كان السؤال نفسه سيكون قائما:

"لماذا هنا بالذات؟"

ومع ذلك شجرّة الجُهنمية الحمراء، التي ترمي بأغصانها على حلق باب السنط الكبير، الذي هو المدخل الوحيد للكنيسة، للمفارقة وعلى عكس عادة (صقور الجديان) بنى طائر البلدة القديمة الخالد، عشه في قلبها! وأشاع الأهالي عنه، أنه يحرس قطرات دّم المسيح، التي في الوقت ذاته، تمد تراب الجُهنمية، بالخصوبة، وتحميها من الديدان والحشرّات الضارّة بالجذور!

تخطىٰ (ود دَبرق) في طيرانهِ مبنىٰ الكنيسة. كان الطريق العام، لا يزال مبتلاً، لم تتمكن شمس شهر مسري - أغسطس- الجارحة بعد، من تجفيف البرك والمستنقعات الصغيرّة، التي تناثرت على مداه!

وجوه متفرقة هنا وهناك، لمارّة أنهكتهم ضغوط الحياة.. نَقر على مدخل العش مصوصواً بتوتر، فأطلّت عشوشة، في كامل بهاء مخالبها المُحناة، وريشها المغسول، الذي تفوح منه رائحة الأقحوان البرّي، التي تشبه رائحة الكافور.

عندما يحلق حول الكنيسة، تترى على خواطره كشريط سينمائي وقائع وأحداث ما جرى، فلِطالما رأى ود دَبرق في حياته العامرة بالوقائع والأحداث كثيرون، يتبخترون في الأرض تيهاً، لا يدرون أنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً.

كان يراهم دائما كمن يسيرون على شفا وادٍ عميق مغمضي العيون، تختَطفهم الأقدار أو تذلهم فجأة، فيسقطون من عليائهم، ليدركوا لأول مرّة في حياتهم "كم هم بؤساء!"..

ومن ثم تحوم زوابع الأمراض المنقرضة حولهم، عندها فقط يتذكرون "الروح العظيمة" التي كانوا قد ألقوا بها في غياهب النسيان. فيذهبون للعلاج في الأردن، ليصبحوا قادرين على العمرّة والحج وانتظار الخاتمة التي تترصدهم!

حدّق بوجه عشوشة، كان واضحاً له أنها كعهده بها، تعتني بمخالبها وريشها ومنقارِها عنايةً فائقة!..

تقدم منها في شوق حارق، واحتضنها بجناحيه، وشعر بخدرٍ، كدبيب النّمل في المسام، يتسلل خلاياه، خليّة خليّة، يطلق فيه ناراً لا أول أو آخر لها!.

كانت الشمس قد شارّفت على المغيب. بعينيه اللتين تدفقت منهما شهوَّة عارّمة، أخذ يتخلل بمنقاره، ريش عشوشة، يتحسس جسمها المتناسق، المتفجر بالحيّاة.

رغم مرور السنوات، لا يزال حبهما يزداد عنفواناً، ولا تزال كما لحظة رآها أول مرّة، عصفورّة رشيقة. يفوح منها مزيج الأقحوان والقِمبيل والرّيحان البرّي، القوّي..

عشوشة حبه المميز، التي اصطفته هو وحده، من بين زحام آلاف العشاق، من عصافير الحسون والكناریٰ والعندليب والبلابل، الذين تغزلوا فيها جميعا بأعذب التغريدات دنفاً بعشقها، حتى طارّت شهرّة غزَلياتهم في الآفاق، تتخطىٰ حدود البلاد الأسيرّة، لتصل مسامع النّوارس في البحر الملوَّن، فتحملها في رحلتي الشتاء والصيف، عبر السواحل والخلجان، إلى الشرق الأقصى وسيبيريا، لُتغردها مع البطريق لأولئك "السانات" المجتمعون تحت سقوف ”الدوما والكرملين“ من بلاشفة السمّان، ومناشفة ألكساندرين، وطيور البلابل والحجل، والحدأة.. والعصفور الهندي وعصفور السنونو

والطاووس والقطا، وكل سدنة النظام القيصري القديم! الذين يتعانقون، إثنين إثنين! يبحثون في أصولهم المنبتة!

ثم تطير، لتصدّح بها على أسقف المباني المحيطة بميدان تيان منة، والساحة الحمراء، "للراستات" المنشقين من طيور القبرّة والقطقَاط و اللّغد، وفلول نظام الأسر الصينية البائد من قنبرّة، وكوكال ولقلق وواق، ويمام، وبقايا الأسر الامبراطورية القديمّة، التي تسعى بجدٍ لتقويض الثورّة الثقافية، يقودها طائر الوروار، وَدجاج الأدغال، وحمام الصين العظيم، "وأسياد الرّصة والمنصة" من دهاقنةِ أسرة وقواق، وغرنوق، المتحدرَتين من صلب الطيور المقدسة، التي ألهمت كيم إيل سونغ، وكاسترو وَسانكارا العناية بالفلاحين الفقراء والحيّاة البرّية!

جميعهم هؤلاء وأولئك، يوحدون أصواتهم في تغريدة واحدة "واقفة قنا"، تشق فضاءات سيبيريا وغوانتانامو ومنفىٰ ومعتقلات الشرق الأوسط الكبير، لتتلقفَها في عبورها إلى أفريقيا طيور الببغاء، والباز، والباشق، والأوز والبومَة والنّسر ونقار الخشب، المتواطئين مع الجنكويز وبوكو حرام. وجيش الرَّب وألوية كامبوني.

وفيما تراقب طيور الكاريبي الموقف بتحفظ وتوتر شديدين، تأتي طيور "القِبَل الأربعة" تخطب ود عشوشة، التي لا تأبه لهم، وتفرد جناحيها لتمنحه هو ود دَبرق –

شخصياً، وحده لا شريك له، وإلى الأبد قلبها اليانع، النديان في هذه البلدة الضائعة!

”اشتقت إليك كثيراً“

قال ود دَبرق وهو يكاد يعتصرها بين جناحيه، وينسى إرهاق رحلته الطويلة، والجمجمة والبلدة القديمة وكل شئ!

كعادته، يستيقظ ود دبرك في الصباح الباكر قبل أن تنشر الشمس جدائلها، فيندفع مزقزقاً في أرجاء البلدة القديمّة، شاقاً الهواء بجناحيه.. يرِّك هنا وهناك، إلى أن تتسحَب خيوط الشمس إلى مراقدها، خلف الأفق الغامض، تمهد لـ الليل كي يُلقي بكلكله.

في الخريف يخلد إلى ”وكنته“ فكل شئ في البلدة عندها، يصبح مبتلاً، فالبلدَة القديمّة كغيرها من مدن البلاد الأسيرّة، تخلو من المجاري، تعاني سوء التصريف..

تركد المياه، وتتزاحم جيوش الباعوض والذباب تنهش أجساد الأهالي، وتفوح الروائح العطنة تحقن رئة البلدة، ويصاب الناس بنوع غريب من الاكتئاب خريفاً، فلا تستعيد البلدة القديمّة حيويتها إلا مع مقدم الصيف، حين تجفف أشعة الشمس البرك، وتتراجع جحافل الناموس والذباب.

كانت أيامه لا تخلو من لهوٍ ومرّح، وهو يعبث بأطفال البشر فيجعلهم يطاردونه بنبالهم. تلك اللحظات تبعث في نفسه السرور. رغم ما يصيبه من إنهاك الكر والفر.

تنهد ود دبرق بوجه عشوشة في أسى:

من كوَّة نافذة الزنزانة كنت أسمع حكايا المريود للسجين الآخر..كان هذا في الزَّمن الذي كنت أتنقل فيه بكثرَّة، بين كوَّات زنازين العسس ومكاتبهم، وهذا يعني أننا كنا في مطلع القرن الجديد!

وقتها لم أكن قد قررَّت بعد مغادرَّة البلاد الأسيرَّة، إذ كنت لا أزال مغرماً بك.. كنت تشدينني إلى هذه الأرض، كانك لا تزالين تلك الآنسة "عشوشة" التي التقيتها لأول مرة في زمان غابر!..

لقد وُلدت محروماً من الأبوين، فقد ماتت والدتي عشوشة الكبرى، ووالدي ود دبرك الثالث عشر، في وقت مبكر من سنين حياتي الأولىٰ، وتركاني وحيداً تعصف بي الأنواء، لا ملجأ لي سوى قلب شجرَّة القمبيل العجوز، في قلب دار الريح، حيث آوي إلى عشي الذي بنيته من القش والورتاب بين أغصانها العتيقة المتكاثفة، التي تفيد الروايات السرِّية، أنها الشجرَّة نفسها، التي وُلد تحتها سيدنا يسوع!.. وهزَّت والدته أغصانها، ليساقط القمبيل رطباً جنياً، وهي رواية قطعاُ تتعارض مع الرواية المعلنة عن شجرَّة النخيل، التي

من المستحيل أن تنمو في هذا الجزء من جغرافيا العالم ومناخه المشبع بالرطوبة والصدأ!

وبالطبع وقتئذ لم يكن هناك من يقلق لطيراني في ساعة كهذه أو يرتاب فيه، وحتى لو تم رميي بحصاة، "وفرفرت" وفصل ود السرَّة رأسي عن جسدي وذبحني الأطفال المجرمين، وشووُني وأكَلوني، أو حتى ألقوا بجُثتي الضئيلة لكلبِ حاجة السرّة! فعلى الأرجح لن يلاحظ ذلك أحد!.. فجميعهم إبتداء لا يلاحظون وجودي!

على الدوام منذ تفتحت عيناي علىٰ هذه الدنيا، كانت مشكلتي مع الأطفال، الذين لطالما اعتقدت أنهم أوغاد، لا ضمير لهم، فلطالما "ناشوني" بنبالهم، ونجوت بأعجوبة من حصاة مرقت مروق السهم من الرَّمية! وكادت تحطم جناحي الواهنين!

أنفقت الجزء الأكبر من خبرَّتي في الحيَّاة، محاصراً بحشود هؤلاء الأشقياء الصغار، المسكونين بالخوف والهواجس والظنون، نتيجة العنف المنزلي، الذي يفرغونه في إصطياد بني جنسي، تارَّةً بالنبال المصنوعة من اللستك الداخلي للدرَّاجات، وتارَّةً بالشراك المنسوجة من شعر ذيل الخيول الهرِّمة، أو العصب الذي يصنع منه صيادين السمك شباكهم.

هؤلاء الأطفال الملاعين يختلفون عن أطفال بني جنسي من عصافير و زرازير أودوري. كما يحب الشعراء البائسين تسميتنا! فهذه الأسماء الثلاثة هي إسم للكائن نفسه، الذي هو أنا (ود دَبرق)، وربما تكون هناك أسماء أُخرى، يطلقها علي النّاس في قِبَل "الأرض الأربعة".

فمن دون عصافير كثيرَّة، أنا الطائر المنزلي والبّري الوحيد، الأكثر انتشاراً في هذا العالم الحزين!..

فأقَاربي وعائلتي الممتدة يعيشون من المحيط إلى المحيط، ومن الصّحراء إلى الصّحراءِ، ومن الغابة إلىٰ الغابة ومن النهَّر إلى النَّهر، يمكنك أن تجدنا في كل قارَّات الدنيا، عدا قارَّة "أنتاركتيكا" الباردة، وذلك لأننا جينيا نميل لمجاورة البشر، والسُكنى معهم في دورهم، إذ نبني أعشاشنا في الفراغات الصغيرّة بين السقف والجدار، أو في قلب الأشجار المنزلية.

وجينياً أيضاً، بني جنسي لا يستنكفون السُكنى في بيوت القش أو القصور.. بيوت الجالوص أو أي فجوة داخل غرف البيوت "ورواكِيبها وكشاشَاتها"، فنحن بمثابة أهم الرموز، في ثقافة العديد من دول العالم.

ها أنا الآن في آخرّيات أياميْ بعد عمرٍ مديد، في كل جزءٍ من جسمي أثر لحصاةٍ قاتلة، تمكنت من تفاديها بأعجوبة، أو أثر لشركِ من شعر ذيول الخيل -سبيب- قاطع تخلصت

منه بنضالٍ مستميت، فخلف ندوباً بارزة على قدمي وساقي، فشل الزّمن في مداواتها.

وأنا في هذه السن الطاعنة في التاريخ، اتأمل في قيلولاتِي الآخيرَّة، أعدادنا التي في تراجعٍ مستمّر! في شتى أنحاء الأرض، وبوتيرّة متسارعة في بعض البلدان الباردة، التي بلغت بها الغبطة أشدها، وهي تمتع بصرها برؤية رّفرفة أجنِحتي في محلٍ لبيع الطيور، أو في منزل أو داخل أَجَمَة، أو في قفص معلق على شجرةٍ، أو عندما يرونني "راكاً" فوق أحد حواف أسطح المنازل، أو أسرح وأمرح في إحدى البرك، لاهياً بنثر قطرات الماء حولي!

منذ وقت ليس بعيد، بدأ فضول البشر حولي يتنامى، إذ اكتشفو فجأة للمرَّة الأولىٰ، أنهم لا يملكون معلومات كافية عني، مع أنني الطائر الذي يكاد أن يكون الوحيد، الذي جاورهم منذ الأزل!.. لقد انتبهو فجأة أن معلوماتهم حولي شحيحة شح (فأر المسيد). بشأن التاريخ التطوري لبني جنسي من (سلالة ود دبرك العظيم).. الذي لطالما اعتقد البشر في كل أنحاء العالم، أنه بمثابة الأيقونة المقدسة، لجلب الرَّاحة والسكينة.

فالعالم الجديد الذي اكتشفه كولومبوس مثلاً، مثلما ظل وطناً بديلاً وافتراضياً لبني البشر، كان لبني جِنسي من الطيور حظهم في الهجرَّة إليه، وفي الحقيقة لم نهاجر إليه

كالغُزَّاة الأوروبيين، بل إستجبنا لدعوات أقاربنا، في غابات وأنهار الهنود الحمر، هذا كل شئ!

ومن مفَارقاتنا كعصافير دوري، حمل أقاربنا هناك اسم قبائل الهنود الأساسية، التي يتواجدون في غاباتها، كزّرزور الشيروكي، ودوري النافاهو، عصفور التشُوكتاو، وهكذا الأمر نفسه مع زرازير تشيلي، اباتشي، القدم السوداء، والسو.

ولربما يُدهش البشر الجهلاء، إذا علموا أن قبائل ود دبرك في غابات الهنود الحمر تحمل سماتهم في الذكاء والحكمة والصفاء الروحي والشجاعة والإقدام، ولذلك بإمكان ود دَبرق أباتشي أن يهزم نسراً جبليا ضارياً، بالسهولة نفسها التي يلتقط بها دودَّة ماكرَّة تنزلق بين مسام الطين!

وفي الحقيقة دوناً عن كل الهجرَّات العظيمة، كانت رحلة بعضنا من المخَلفين، الذين تأخروا في تلبية دعوَّة أقاربنا، في غابات الهنود الحمر، مماثلة لرحلات العبيد الذين رّست بهم سفن النخاسة على موانئ الساحل الشرقي للأطلسي الرهيب!..

ولأكون أكثر دقة فإن المسؤول عن جلبهم بتلك الطريقة المهينة، هو ذلك النخاس الشهير "يوجين شِيفيلين" الذي استمد وليام شكسبير منه، أسماء كل الطيور، التي استعان بأحزانها في مسرحياته السايكوباتية الدَّامية!..

هذا المدعو يوجين، ليس سوى النخاس نفسه المهووس باسترقاق كل طيور العالم الواسع، وجلبها لزرعها في العالم الجديد، الذي ادعى المأفونَان كولومبس وفاسبوتشِّي اكتشافه!

ومما هو مثير للدهشة زعم "مارك رافينيت"، العالمُ المتخصصٌ في أبحاث تطور الكائنات الحيّة، في جامعة أوسلو، أن تطورنا كأبناء ود دَبرق، لم يعالج بشكل صحيح!

وانطلاقا من إسم "باسَر دوميسْتيكوس" الذي أطلقه علينا أمثاله، لاعطاءِ سلالتنا صبغة علمية منذ الملحد سئ السمعة "داروين" وصولاً إلى آخر عالم أحياء يهودي من معاصريه، ظن هؤلاء وأولئك أنهم قتلونا بحثاً!

ويتوجب هنا أن لا ننسى المثقفين و الإنسانيين وذوي الاهتمامات التراثية، الذين ظلوا يكرسون بني جنسي كرمز غامض، أينما يمموا وجوههم مشرقاً ومغرباً!

وما هو محزن حقاً، هو ما لوحظ من تراجع لأعدَادنا، لدرجة التهديد بالانقراض. خاصة مع تزايد نشاط أطفال العالم الفقير الأشقياء في اصطِيادنا.

فهم خلافاً لأطفال العالم الغني ومتوسط الحال والفقير، والفقير جداً، حُرموا من مباهج كثيرَّة، كالتي يمنحها

الكمبيوتر، وقبائله المختلفة من جنس التابلت والايباد وهلُمجرا!

فالفقر المدقع لأطفال كأطفال هذا البلد الجنكويزي الحزين، يحصر مباهجَهم في اصطِيادنا، دون رّحمة، على سبيل إزجاء الوقت والتسلية!

صديقنا مارك رافينيت في أبحاثه الآخيرّة التي واظبت دورية "ذا رويال سوسيتي"، على نشرها، سلط الضوء بشكل مركز على تاريخ تطور وتكيف بنية جنسنا، أحفاد ود دَبرق العظيم، وكان رافينيْت قد خَلُصَ في البحث الذي أجراه بهذا الصدد إلى نتيجتيْن مدهشتيْن. الأولىٰ: أن السبب في تأقلم وتكيّف أحفاد ود دَبرق العظيم على العيش بجانب البشر، يتمثل في الارتباط الذي استمر بينهما عبر الزمن.

فمنذ غادر جزء من أسلافنا موطنهم الأصلي "إفريقيا"، إلى أوروبا الفيكتورية، أخذ الفيكتوريين الانجلوساكسون المتفائلين، وخصوصا اولئك المتحدرِّين من الفايكنغ الأشرار، ينظرون إلينا بقنزحتهم المعتادَّة، كأياقين تشعر بأنها لا تزال في موطنها الدافئ، رغم البرودة التي تكتنف كل شئ في الجزيرة البريطانية الكئيبة!

وذلك لأنهم استرَقونا، ووضعونَا في أقفاص الزينة، بعد أن بعثت رفقتنا لهم في الحدائق السرور. وفي الحقيقة تجوالنا في حدائقهم في مبدأ هجرتنا، لم يكن لرفقتِهم أو بعث

السرور إلىٰ نفوسهم المعذبة، وإنما لأننا كنا ككل المهاجرين مجرد لاجئين مشردين يبحثون عن المأوى والقوت والأمان! لا أكثر ولا أقل!

فالرّغبات الأخرى تأتي بعد ذلك عادَّة، والحق يقال فقد طاب لنا المقام، نظراً لتعرفنا على طيورهم الحسناوات المختلفات عن طيورنا الغبشاء الشاحبة! وصحيح أننا لسنا بوسامة عصافيرهم الذكور، إلا أن فُحولتنا دفعت حَسناواتهم المكتنزات أن يغرمن بنا حتى نسينا الأهل والأوطان!

رغم أن الجنكويز الخبثاء أخذوا يسربون نوعاً من التفكير الموسوس، يصورنا نحن أحفاد ود دبَرق العظيم المهاجرين، كعملاء ضد أوطانهم المستعمَرة!

الحقيقة الأساسية أننا انتشرتا بانتشار الزراعة، بالتالي الحضارَّة، وذلك لأننا طيور مدنية بالأساس!

وللمفارَقة عندما أجرى رافِينيت مقارنة للحمض النووّي لنا كود دبرق منزلي، مع أقاربنا البرية تأكد له تماماً بما لا يدع مجالاً لأي شك، أننا المنزليون شعب مدني، تأقلم وتكيّف على العيش جنباً إلىٰ جنب مع البشر، بسبب الارتباط الذي استمر بيننا عبر الزّمن.

ففي أمسية باردة حالكة الظُلمة، جلس رافِينيت خلالها في مكتبه، ليبدأ تحليل هذا الأمر، فوجد أن هناك جينينْ "مورثيْن" مختلفين، وبعد بحث مضن أدرك أن الجين الأول، يلعب دوراً في تحديد شكل الجمجمة وهيئتها وبنيتها ومظهرها الخارجي، وهو ما رفع من ترمومتر حماسته للمضي قدماً في التعرُّف على الجين الثاني بمجرد رؤيته، لأنه جين موجود في الكلاب والبشر!

وهذا يعني أننا والبشر والكلاب أقارب بحكم الجينات المشتركة! وهذا يفسر تكيفنا والبشر والكلاب، مع النظام الغذائي النشوي.

هذه المعلومات الجديدة عن أصولنا، عندما نقلناها إلى أقاربنا في إفريقيا، أثارت بلبلة في قبائل وبطون وأفخاذ وعشائر ود دَبرق، وجعلتهم يَستعيدون التفكير في نمطنا الغذائي!

فغالبية أحفاد ود دَبرق العظيم، تتغذى على الحشرَّات عندما تكون في فترَّة رعاية صغارها. كالانسان في ميله لأكل حشرَّة الجراد!

وتميل للتغذي على الحبوب طوال العام، باستثناء فترَّة التكاثر.. ومن هذا المنظور، ربما يكون تطور جماجمنا مرتبطاً بتحولٍ في النظام الغذائي ليصبح مؤلفاً من الحبوب، التي تنمو في الأراضي الزراعية. وهكذا يرجح

صديقنا رافينيت أن الشكل الذي تتخذه جماجمنا، ما هو إلا "توافق" مع طبيعة التغذية.

وهكذا، أقاربنا في إفريقيا لا يزالون منشغلين بالتفكير على نحوٍ مختلفٍ، في بنية جنسنا كعصافير، وقرَابتنا بالبشر والكلاب! خصوصا سلالتنا المتحدرَّة من ود دبرك العظيم، آخر أحفاد طائر الجنة المقدس، الذي هبط مع أبو البشر آدم، وكان أنيسه وجليسه قبل عثوره على حواء، وتجاهل آدم وجوده بعد ذلك، كما يحدث اليوم معنا من جيراننا البشر، الذين نَساكنهم المنازل!

ولأن جدنا هبط مع آدم، تجد جنسنا شائع الوجود ومألوف بشدةٍ، في الديانات والتاريخ البشري، والذي ربما يرى البعض الآن أحد أبناء جنسنا، في هذه اللحظة خارج نافذته، وربما أن ذلك سيدفعه، للتأمل في الكيفية التي يتشابك بها تاريخ تطور أقاربه، من بني جنسنا بشكل وثيق للغاية!

إن احساسنا بهموم البشر فائق الشفافية، وربما لذلك أجد نفسي مدفوعاً دفعاً للاطلال من نافذة تلك الزنزانة، على أولئك السجناء أُغرد لهم، علني أسري عنهم بعض الشئ، في محنتهم الجنكويزية القاسية!

❀❀❀

أخبرته "هيلدا"، أنه بالكشف الآثاري على الجمجمة، المزيج من جمجمة ود دبرق وانسان قديم، عثر الآثاريون "البِيض" على ذرَّات فَضيّة دقيقة تحشو الأضراسِ السفلىٰ.

عُلماء "معهد جار النبي جارو"، الذين عثروا من قبل، في أحد بيوت البلدَّة القديمَّة على غرفة، في إمتدادِ الأرض التي تنهض عليها الكنيسة العتيقة، علىٰ بعضِ الكتب والمخطوطات القديمَّة، والأثاث المكسور، وصندوق خشبي صغير من الأبنوس، مغلق بالمسامير بإحكام.. فكانوا يعولون كثيراً؛ على نتائج الفحص على تلك الجمجمة، لفك الطلاسم المتعلقة بكشفهم في ذلك الصندوق القدّيم، الذي عندما قاموا بفتحهِ، وجدوا شيئاً غريباً: جمجمة غريبة الشكل، ترقد في قاع الصندوق، علىٰ قماش غير معروف، يرجح أنه لنوع منقرض من نسيج دودة القز!

ما لفت نظرهم، أن هذه الجمجمة، أصغر حجماً من جمجمة الإنسان الطبيعي المعروفة! كما أنها تعرضت للكسر أعلى الجبهة، لكن المذهل حقاً، ما وجدوه من منحوتات غريبة، محفورَّة على الجزء الأمامي من الجهة اليمنى للجمجمة، ولكن الشيء الأكثر إثارة للإهتمام، أن هذه الجمجمة تكاد تكون مطابقة للجمجمة، التي تم العثور عليها مؤخرا، تحت شجرَّة الجهنمية الحمراء، برفقة بيضة متحجرَّة لأنثى عصفور "ود دَبرك!" وبعد الفحص والتحليل، توصل

علماء "معهد جار النبي جارو"، الى أن هذه الجمجمة، عمرها يصل إلى أكثر من ثلاث آلاف سنة!

لكن لاحظوا أن عظام هذه الجمجمة، أرَّقَ من المتوسط، على الرغم من أنه، يبدو أنها تنتمي لذكر، تجاوز الخمسين من عمره! وقد كشفت اختبارات الحمض النووي، أن الجمجمة تحتوي على الكروموسوم إكس و واي، ما يدلل على جنسها البشري، ومع ذلك يشير البعض، إلى أنها لذكر مهجن، من إنسان وكائن آخر غير بشري استوطن هذه البلاد!

الباحثين المتعجلين استبقوا فحص العلماء، واستدعوا إلى أذهانهم تلك الحكاية القديمَّة، عن أن صانع الفخار، أمه إحدىٰ حورِّيات النَّهر، مستنتجين من الحمض النووي للأم، أنه لشئ غير بشري!

قسسة كنيسة البلدَّة القديمَّة، رغم شكوكهم في الشيطان، كان رأيهم مختلفاً، لكنه عضد في الوقت نفسه رأي علماء "معهد الأئمة والدعاة" إذ رجحوا أنها جمجمة "نبي تلك الديانة القديمَّة الغامضة"، التي سبقت ميلاد يسوع بآلافِ السنوات، وبعثها "أرتكنِّي فرعون كليوة العظيم" من جديد، للقضاء، على ديانة "عمّون" في "ووشِك" البائدة، وأن ذلك الرجل الذي هدَّم هرَّم "الربجاوية"، إنما كان يبحث عنها هي، لتأكيد شكوكه حول الإله "درماس".

لكن مجموعة أخرى من الباحثين "الزنج" المتحدرين من مملكة "كليوَّة" البائدة كانت "هيلدا" قد تباحثت معهم، يعتقدون أنه بالفحص والتحليل، تبين أن هناك ما يشير إلى طفرَّة جينية! ربما تعود للمجموعة الغامضة، التي ينسب إليها "بعاعيت" "مملكة فاز"!

قالت هيلدا وأنفاسها الدافئة تلهب وجه جادين:

"اقترح العلماء (البِيض) إعادة الحفريات، في المنطقة حول البلدّة القديمة والمدينة الزَّاهية، التي تضم بعضاً من الكهوف الحجرية والجيرية والأسمنتية العديدَّة، وكذلك المنطقة حول جبل الرَّاهبات!"

مرَّر جادين أصابعه النحيلة على خدها:

"فعلًا تلك المنطقة، مليئة بالأسرار، فقد تم العثور هناك من قبل، على بقايا أجزاء هياكل عظمية، لخمسة عشر رجلًا، في مقبرة جماعية، على عمق ستة أمتار، يرجح أنهم الأولياء الذين اجتمعوا، بُعيد صلب صانع الفخار مباشرة!"

وقتها كانت قد راجت حكاية، تفيد أن جَنكويز المقدس سره، داهموهم في اجتماعهم ذاك، وقتلوهم فوراً!! لكن كانت النتائج، التي توصل إليها العلماء البِيض مختلفة!

إذ كشف التآكل على الأسنان، وخطوط النمو في عظام الجمجمة، أن تلك الهياكل عمرها أكثر من ثمانية عشر ألف سنة، كما أنها تعود لإناث بالغات، وليس ذكور، كما تكشف خصائص عظام الحوض والساق!

❀❀❀

الأهالي الذين فقدوا القدرَّة على الخوف، لهول ما عاشوه على عهد الحاكم الجنكويزي العام، الذي خلق مناخاً مروعاً، مشحوناً بالشك والرِّيبة..

ولكثرَّة ما شكوا وارتابوا في بعضهم البعض، ما عادوا يأبهون، من هو الخائن أو العميل أو المخبر الحقيقي بينهم! ولم يعد يهمهم من هو المناضل، الذي يحمل على كتفه حمامة بيضاء، وغصن زيتون أخضر، أو المقاتل الثوري الجسور، الذي يحمل مدفعاً رشاشاً!

لم يعد يهمهم من هو المتواطئ، أو المثقف أو المتآمر أو السياسي.

إذ تكثفت كل مشاعرهم واحساساتهم بما حولهم، وما عانوه لعقودٍ طويلة، وتركزت في بؤرةٍ واحدة: الغضب الذي تفجر داخلهم بغتةً، كانفجار مدوي، لركام أحزان وبؤس مئاتِ السنوات!

لذا كانوا أشبه بسيلٍ جارف، ليس بإمكان شئ إيقافه!.. فبغتة تلبستهم روح جديدة، تختلف عما ألفوه في أنفسهم. ما عادوا هم أولئك الناس، الذين لطالما تجنبوا الاحتكاك ببعضهم، على غير ما كان عليه أسلافهم، في أزمنتهم الغابرَّة، يتفاعلون مع بعضهم البعض.. يأمنون لبعضهم البعض، ولا يخشون إيداع أسرارِهم؛ صدور بعضهم البعض! تغيَّر كل ذلك، على عهد الأسر الجنكويزية

المالكة، التي أسسها المقدس سره الأول، صاروا أشبه بالغرباء، حتى داخل بيوتهم، وبين أهليهم وأبنائهم وأشقائهم!

لا يعرفون بعضهم! تحيتهم عابرَّة.. فهم دائماً علىٰ عجلةٍ من أمرهم، وبالكاد يهتمون لما يحدث حولهم!

لم يكن لأي عين "نجيضة" أن تُخطئ من أول نظرّة، رؤية ما يعتمل في صدورهم!..

كان واضحاً بجلاء، أنهم تعبير فاضح، عن وطن مثقل بالهموم والديون.. وجوههم تنطق بذلك.. هؤلاء النَّاس طفح بهم الكيل، فهبوا يحطمون قوالب الجنكويز، التي أعادت صياغتهم، على هذا النحو البشع!

❁❁❁

إذن في تلك الظهيرَّة الكالحة، المقبورَّة في أزمنة سحيقة منسيَّة، حمل أعيان البعاعيت إلى حفيد فاز خططهم وأفكارهم، تصطرع داخلهم مفاهيم متصارعة، بمثابة المخاض لمشروع نمَّت بذرته الأولىٰ، وشبَّت تدفع خطواتهم للقاء أبوركبة، على بعد مسيرَّة يوم من جبل الرّي، حيث عسكر بجيشه، قادماً من رحلة طويلة في دار الريح.

وما أن وصلوا ووجدوه جالسا على (كَكَرِّه) في خلوته البديعة كأنه ينتظرهم، حتى لاذوا جميعاً بالصَّمت وانتظروا حتى يأذن لهم بالحديث. وطال صمته وصمتهم، إلى أن سألهم:

"وجوهكم تحمل خبراً"

فردوا:

"نحن هذا (الملك) (أبيناه) فما تدبيرك فيه؟"

فقال لهم:

"أنا قبل ده قلت ما يبقى ليكم (مك) ولا لنا "سيد" لكنكم تركتم تدبيري والآن جيتو تجَقلبو، فاشيروا بشورتكم"

سكتوا لبرهة من الزمن ثم قالوا:

”نفصل لك لو أذنت لنا“

”أذنت لكم“

”كما تعلم نكَّل السلطان أب كردوس باتباعك كلهم، حتى نحن لم ننجو في غيابك“

”جئنا نبايعك على عزله، والحلول محله“

تململ أبو ركبة في مجلسه وقال:

”لكن هذا لا يجوز، فالموانع كثيرَّة“

”بل قل أن كل أسباب عزله متوفرة وأهالي السلطنة في صفنا“

أطرق أبو رُكبة قليلًا وحك ذقنه، فسأله أحد الأعيان:

”يبدو أن لأميرنا رأي آخر غير ما نرى؟!“

زَّفر أبو رُكبة بعمق وقال:

”إن ما يشغلني الآن هذه الأزمات؛ التي تكاد تعصف بالسلطنة، فقد نمىٰ إلى علمي أن الأترّاش في طريقهم إلينا بجيوشهم، فيما الملك والأمراء منشغلين بالصرَّاع على السُّلطة والنساء، ويشغلني أكثر صراعنا مع دار الريِّح،

وأتساءل هل هذا الوقت مناسب لعزل الملك، وكل هذه الأخطار تحاصرنا من كل إتجاه؟!"

¤¤¤

ها هي ظلالهم تخرج الآن من مركز العتمَّة: صانع الفخار، ود دبرق بن زرزو الدوري، حامد القطي، المريود، جميعهم.. جميعهم من كثافة الغبار، يخرجون..

يتسلَّلُون موجات الانفجارات، خلل التُّراب ونثار الطوب المتفتت عبر النوافذ، التي أصابت وجوههم وأجسادهم.

كان القصف قد أدى إلى انخلاع باب الزنزَّانة، وسقوطه عليهم.. خرجوا من شدَّة الخوف يتحاملون على أجسادهم المنهكة. كانوا مصدومين! وهم قاب قوسين أو أدنى من بورة الظلمة العمياء!

شعر جادين جانو بألمٍ في رأسِهِ.. تحسسه.. وجده جُرحاً يسيل دماً. وقتها كان القصف قد توقف. فتلفت حوله ليرى المشهد: تصدعت جدرَّان الزنازين، وانخلعت حتى الكوَّات، الصغيرَّة، التي كانت بمثابة نوافذ.. فيما ود دَبرق مغمىً عليه، وهو مستلقٍ في استسلام على ظهرهِ. حَمله ودسّه في جيبهِ!

بعض المساجين يهربون، ولم يكن هناك أي من "الجَنكوِيز" ليوقفهم.

فيما رفاقه يفرّون متفرِّقين، لا يلووُّن على شئ! تجول جادين في أنحاء المكان المهدَّم بحذّر.. كان أغلب المعتقلين مصابين بإصابات بالغة، وقد بدى كل شئ حوله، أشبه بـ "أطلال دارسة!" فقد كان واضحاً أن البنايات، دُمِرَّت بإصابات غاضبة، في هذا الفضاء المنهار!

لم تُبقِ الانفجارَّات الرَّهيبة، سوىٰ على جُدُّر من عتمَّةِ آلافِ السنوات، تحيط بخصرِ البلدة القديمَّة.. تحصر ضوءً غامضاً، يسعىٰ حثيثاً لفتح ثُغرَّة يَفلِت منها، ليهشِّم هذه الجدرَّان الصماء، ويبدد هذه الظلمَّة الكثيفة، التي تستمد حلكتها من الأفكار الماكرَّة والمراوغة للشيخ الهميم العرَّاب!

ومن منبع الحكايا الخرافية والأساطير ضاربة القدَّم! كان وقتاً حالكاً جداً، لكنه غير محدد بليل أو نهار، فقط حلكة.. وجد نفسه يمشي فيها غريباً ووحيداً!

خطىٰ في شارع طويل مترب، متعرج، مظلم المباني، لا يذكر أنه رآه منً قبل!

من ضعف أهالي البلاد الأسيرَّة، استمد الجنكويز قوَّتهم! أرهقتهم وأرهبتهم الفظائع التي ظلوا يرتكبونها،

فاستسلموا.. بل أصبحوا أشبه بموتىٰ، إذ لا ترى عندما تجوب في شوارع هذا البلد المنهار، المهدد بدمار وشيك، سوى رجال العصابات والمجرمين والمحتالين والانتهازين والمتاجرين بالأخلاق والساسة العطالى والسوَّقة!

ترى هل كان كل هؤلاء مضطرين لارتكاب ما ارتكبوا من جرائم؟ وإن يكن ليس بالإمكان تغيير الماضي، فبالإمكان صناعة حيّاة أفضل، من رّكام هذا السقط المرير.

زحف جادين، مبتعداً عن الانفجارات التي باتت أصواتها تبتعد وتنأى، فتأتي خافتة خلال أغبرَّة الرَّماد وانهيار الأبنية، التي يتدفق خلالها ضوءً شاحباً، لا هُوِّية له! فيمشي حثيثاً، حثيثاً في وجلٍ. قاصداً البيت حيث تُقيم "هيلدا". لم يخطر على باله رؤية أحد سواها!

خلال الأغبرَّة ودُّخان الانفجارات، كانت تتبدىٰ له الوّجوه والبنايات والنَّهر العكِّر، المختنق بالطمي ونباتات "المعونة"، حتى لا يكاد يتعرَّف عليه، وهو يعبر تحت الجسر، إلى الجانب الآخر من البلدة!

كل شيء بدىٰ غريباً: أشباح الجبال البعيدّة في قفا البلدَّة، الترَّاب، أشجار "النِّيم" التي تظلل الشوارع، والجُهنميات الملوَّنة، التي تتدلىٰ لتحتضن أسوار وأبواب المنازل القديمَّة، وجوّه الأطفال المذعورِّين، الذين فقدوا أُلفتهم وبراءتهم، هي الأُخرىٰ بدَت كأنها شاخت فجأة!

البلدَّة بكاملها كانت غارِّقة في غلالة غريبة من الهواجس والظنون! يتدفق منها الغموض على نحوٍ محيِّر، فيغرقه في نوع غريب من الذّكريات والمرارّات، التي لم يكن واثقاً، إن كانت جزءً من تجربة حياته أم هو يتوهمها! إذ كان لها طعماً غامضاً ومحيراً هو الآخر..

في العزّلة الأبدية التي سيج بها الجَنكويز أركان البلاد الأسيرَّة، فقدَّت الأنهار والوديان التي على إمتداد البلاد، قُدرَّتها على الجُموح كما كانت قبل مئات السنوات الخوالي، وأخذ كل شيء يفقد ملامحهِ وطعمهِ ورائحتهِ بمرورِ الوقت!

وهو يعبر الجسر، شعر بنَّهر البلدة تتجدد فيه الحيَّاة، كأن الكائنات التي تسبح داخله، تنهض من غيبوبة آلافِ السنواتِ، فتتدفق في شرايينهِ المتوفزَّة..

خرج من المعتقلِ، أشبه بكائنٍ غرِّيب.. حاول أن يتخيل نفسه في مرآة خياله، وعند نهاية الجسر، مضىٰ بخطواتٍ واسعة، قوِّية، تكاد تهز الأرض تحته!

بدى مديد القامة كشجرِ البان، عيناه غائرتين، يلوح في قاعهما طيف بُنِّي خفيف. كان بتقاطيعه الحادَّة، التي لا تتلائم مع حجم وشكل أُذنيه، وحاجبيهِ الكثَّين اللتان يكادان يدفنان جفنيه العلويين تحتهما! يعطي الإحساس بالانتماءِ

إلىٰ عالمٍ آخر، غير هذا العالم، الذي يتكبدون عناءِ العيش فيه!

لطالما أعتقد الذين يرتادون "الأندايات" من أهالي البلدَّة القديمَّة، بعد أن تعبث "المَرِّيسَة" برؤوسهم، أن فجر ملايين السنوات، ليس بإمكانه تبديد هذا الظلام الذي يحسونه حتى في الدُّروب، والأزقة، والشوارع، التي تخرج من البلدَّة القديمَّة، وتقود بمكر في تعرجاتها المرّاوغة إلى أطراف البلاد الأسيرَّة، دواخلهم التي انطفأت على أحلامٍ مجهضة!.. تقود "شبابيك" البيوت الواطئة وكل شئ!

ورغم أن الشّمس تشرق في ميقاتها كل يوم، دون أن تتغيب يوماً واحداً، ورغم أن القمر ينبثق في موعده دون تأخير، إلا أن احساسهم بجُذُّر عازلة، متلفعة بظلمة حالكة السوَّاد، ظل يتعاظم كلما تقدم بهم العمر، وأصبح مجرد "عَبَّار" واحد من أردأِ أنواعِ "المرِّيسَة"، بإمكانه أن يأتي بآخرهم!

❁❁❁

”الخطى التي مشاها ”أرتكنِّي العظيم“ بعد مئات السنوات، تنعطف في منحنيات زَّمن البلاد الأسيرَّة“..

قال جادين جانو وهو ينفث دخان سيجارته، ويراقب تموّجات الدُّخان، التي أخذت تنبثق، من دوائرها المتلاشية، وجوه زملائه في "معهد جار النبي جارو لدراسات التاريخ وأبحاث الآثار" وهم يتأملون أحوال البلاد الأسيرَّة في التقارير الفاجعة! ويرونها وهي تنحدر، إلى قاع الهاوية ببطء مميت، ولا يملكون شيئاً لإيقاف هذا الانحدار!

”البلاد الأسيرَّة الكبيرة تموت، تلفظ أنفاسها الأخيرَّة، تقضي شعوبها على بعضها البعض!“

قال بروفيسور محمود موجهاً حديثه لجادين جانو، الذي أطرق رأسه قليلًا قبل أن يقول:

”طوال تاريخها كانت حروبها تلد إحداها الأُخرىٰ، ابتلعت دويلاتها بعضها البعض، وظلت تبلع إلى أن أُصيبت بالتخمّة، فتفجرّت“

”المشكلة الآن هي الجَنكويز، فهم لا يقبلون بالآخرين، مشكلة البلاد الأسيرّة أن يقبلوا بعضهم، أن ينتموا لهذه الأرض، ويفتخروا بانتمائهم لها، دون أشواق لأرض هاجر منها أسلافهم.. تركوها وراءهم منذ عصور سحيقة، هذا هو الحل“

مَدّ بروف محمود يده بملف أحمّر اللَّون لجادين وهو يقول:

"هل اطلعت على هذا التقرير: (نظام يقتل شعبه؟)"

أخذ جادين يُقلب صفحات الملف، قبل أن يقول:

"مررت عليه مروراً عابراً، لم يكن لدي وقت لكن سأقرأه الآن"

كان التقرير عبارّة عن افادات اللاجئين، والنازحين من مناطق الحرب، لمندوبي "منظمة الحقيقة والسلام" التي كشفت مؤخراً عن استخدام نظام المقدس سرّه، لأسلحة محظورَّة ومحرَّمة، في حربه الشرسة ضد هوامش البلاد الأسيرّة!

كذلك أشار التقرير، لاستخدام الرصاص الحي والمطاطي، ونوع غريب من الغاز، يؤكد الخبراء أنه نوع نادر الوجود، تم استخدامه في قمع التظاهرات الطلابية!

أخذت عينا جادين تجريان على السطور بسرعة خاطفة، إلى أن تخطىٰ المقدّمة، وأخذ يقرأ بصوتٍ مسموع لاهث، ثم أخذ صوته يخفت شيئاً فشيئاً، إذ كان ما يقرأه من افادات يبدو مرعباً حقاً!

بدأ التقرير بإفادة يائسة لأحد المهجرين:

”لقد فقدت كل شئ، ولم يعد لدي سوى أصابع اليدين“..

وقال آخر بغضب وقد تسايل الزبد من شدقيه:

”لا أرغب في العودَّة، ما دامت لا توجد ضمانات، لسلامة أسرتي“..

وفي خوف مريع روَّى صّبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، أن مليشيات وجهاز عسس الجنكويز، اختطفته من أحد الحقول، واقتادته إلىٰ مخيَّم بالقرب من حدود الصعيد، وهناك جُرِد من ملابسه وتعرض للجلد المبرح!

فيما أكد آخر بأسى، أنه تعرض للاغتصاب وأُحتجز، في أحد المخيمَّات الخاصة بـ الجَنكويز لمدة ثلاثة أسابيع، إلى أن تمكن من الهرّب.. ووصف أحد زعماء القرى في غبن، صوَّر العنف ضد النساء، خلال الحرب التي أعلنها الحاكم الجنكويزي العام، لنظام المقدس سره:

”كانوا يأتون ويأخذون نسائنا وبناتنا، ويتلذذون باغتصابهن على مرأى منا“..

فيما حكّت امرأة بصوت منكسر، أن مجموعة من المهاجمين، يرتدون ملابس مدنية وعسكرية، اقتادوها مع مجموعة من الفتيات، حيث تعرضن للاغتصاب مراراً، على مدىٰ ثلاثة أيام. وقالوا لهن:

”عندما نأتي المرَّة القادمة سوف نبيدكم جميعاً، ولن نُبق طفلًا واحداً على قيد الحيَّاة!“..

وعلقت منظمة الحقيقة والسلام، على الجزء الأول من التقرير قائلة: ”إن نظام المقدس سره، يتحمل مسؤولية ما يجري من (تطهير) في دار الريح، وأنها ستعمل على توثيق القتل الجماعي للشعب، بل قتله حتى أثناء أدائه شعائره الدينية، وتدنيس مقدساته. كما ستُوثق أيضا الإعدامات السرّيعة للأهَالي البسطاء، وإحراق المدن والقرى، والإخلاء بالقوة، لأهل الأرض وإحلال غرباء محلهم، والاستيلاء على ممتلكاتهم وأراضيهم الزراعية الشاسعة..

سنوثق لكل شيء ولن نترك فرضاً ناقصاً“

❁❁❁

في تلك الظهيرَّة الكالحة، المقبورَّة في أزمنة سحيقة منسيَّة، وفيما تحرك عدد من أعيان البعاعيت الذين بلغ بهم الغضب مداه، على ممارسات السلطان أبوكردوس، وجهتهم مقر إقامة الوزير أبو ركبة بالقرب من جبل (الرَّي)، حيث يعسكر جيشه. أخذوا يغذون الخُطى لا توقفهم حتى الحوجة لشربة ماء! مدفوعين بالأمر الجلل!

كان واضحا أن (مملكة فاز) تعيش أسوأ مراحل حياتها، بعد أن خبأ بريق الرَّقابة العسكرية ونفوذها، الذي لطالما كان العضد، الذي يسند أعمدة الدولة،كلما هبَّت عليها أعاصير الداخل أو الخارج.

هذه الرَّقابة العسكرية الصارِّمة، التي عزَّلت من قبل السلطان (أونطة الثالث)، بسبب استهتاره وظلمه للناس، وانهياره الأخلاقي المريع، ولا مبالاته بالأعرَّاف السائدة!..

هذه الرّقابة التي أجبرت "جبور الخامس"، على النزول عند رّغبة الجيش، وإحقاق العدل بين النَّاس، فانصاع مُكرهاً، خشيَّة ثورَّة الأمراء الزِّنج أحفاد ملوك (كليوة) ونبلائها الغابرين! هذا الجيش الذي لطالما تصدّىٰ للمؤامرات، داخل الأسرَّة المالكة، وخاض حروب السلطنة ضد التمردات في جبال (فاز)، والصعيد بين قبائل

(الجلك!) وفي دار الريح لإخضاع أهالي الهشابات وقيزان المرافعين..

هذا الجيش المتمرِّس في الحروب الدَّاخلية، خاض الحرب تلو الأخرى ضد الأتراش الغزاة أيضاً! لم يكن ثمَّة سلطان من سلاطين فاز المتعاقبين، لا يخشى غضبة هذا الجيش، الذي لطالما خبر التآمر والحروب والتمرّدات هنا وهناك، في البلاد الأسيرة مترامية الأطراف! فلطالما خلع السلاطين، بسبب سوء الإدارة والحكم، والاستهتار بمقدرَّات الشعب والدولة، لكن اللحظة التي يواجهها هذا الجيش الآن، على عهد السلطان أبوكردوس، تختلف عن كل ما واجه من لحظات!

ففيما كان أعيان (البعاعيت) يقتربون من مقر اقامة قائد الجيش أبوركبة على مقربة من جبل الرَّي، كان التجار الجدد، الذين تمكنوا بدأب صبور من تفكيك احتكار السلطان أبوكردوس لتجارة السلطنة، قد استصحبوا اتباع صانع الفخار، كدّرعٍ واقٍ، تحسباً لأي مواجهة محتمّلة، مع سلطان ضعيف كنّمر جريح، أخذ نفوذه على قطاعات نافذة في شعبه ينحسر ويتبدد!

كان هؤلاء التجار، قد التقوا في وقتٍ سابق باتباع صانع الفخار النَّافذين، ومن ثم التقوا بأعيان البعاعيت وتباحثوا معهم جميعاً، في أمرِ انتشال السلطنّة من تداعيها

المتسارع، الذي كان السبيل الوحيد لإيقافه، هو إزالة السلطان أبو كردوس وتنصيب أبوركبة محله!

كانت هذه الحركة الدؤوبة، بمثابة إعلان عن مولد "قوَّى جديدة"، عازمة لا على تفكيك الاحتكار المزّمن للسلطان لثروات السلطنة فحسب، بل أيضا عازمة على القضاء على أي مظهر للنفوذ الأُمومي، الموروث من "كليوة البائدة"، التي فيما ورِّثت فاز مواقع سلطتها، ظلت تسعى جاهدة إلى إلغاء والقضاء على كل موروثاتها الأخرى، التي سادت لآلاف السنوات!

هؤلاء التجار الذين رأوا العالم، بحكم حركتهم في الجغرافيا الواسعة للبلاد الأسيرة والجوار! كانوا مدفوعين بغبائن شتى! فالنظام الأمومي الذي حكم السلطنة، وقف سداً منيعاً بوجه بعضهم في الإقتران بحبيباتهم من الأميرّات، إذ كانت السلطة تنتقل من السلطان لأبن أخته، إذا لم يكن له ولي عهد من صلبه، ولا يكون السلطان سلطاناً، إلا إذا كان من نسل بنات "الحور"، وكان الخال شقيق الأم والمكنَّى بـ"سيد القوم" ذو سلطة عظيمة في البلاط الملكي، إذ يقوم بإدارة القصر وتعليم الأمراء، وله وحده تسند مهمة قتل السلطان إن أرادوا عزله.

وبموجب هذا النظام لم يكن أي "مَانجُلك" ليصبح مكاً أو أرباباً في (مملكة فاز) إن لم يكن متزوجاً بإحدى بنات

"الحُور" وهذا ما سبب إنغلاقاً في الأسرَّة المالكة، إذ أن أبناء الأرَّابيب لا يصبحون أرابيباً، إذا لم ينجحوا في الزواج بإحدى حفيدات "الحُور" من سلالة البعاعيت المنحدرين من الجوار في السافل!

وبذا كَثُر الأرَّابيب "السابقين الفاشلين" في إستعادة أرابيبيتهم، ما خلق غبائناً وسخطاً، على العُرف والتقاليد، فقد وجدوا انفسهم في منزلة بين "الأتباع" و"السادة!" وهؤلاء كانوا هم الرَّصيد الذي نهل منه صانعي الفخار فحصدوا كثيراً من الأتباع المدفوعين بغبائن لا حدود لها!

لذا عندما اجتمع التجار مع كل هؤلاء بأعيان البعاعيت، كانوا محتقنين بعشرَّاتِ الأفكار، التي تجد دعماً من فئات عدّة، ذات مصلحة في الإنقلاب على النظام السائد، الذي أعطى السلطان والأسرَّة المالكة كل شئ، وحرَّمهم من كل شئ!

لكن لم يكن "السلطان- الإله"، هو ذاته! فقد خُففت قدراته منذ انقلاب "أرتكنِّي" قبل مئات السنوات، فصار كسلطان، مجرداً من قدراته الماورائية، كملك للشمس والظِّل، المخفي والظاهر، المحسوس والغير مرئي. وانحصرَّت سلطته على الأرض وما عليها، محتفظاً بالقدرَّة على قتل مخالفيه متى رغب ذلك!

وخفَّت هذه القدرّات أكثر، باتساع نفوذ الأديان الجديدة التي بدأت تغزو مملكة أرتكنّي مترامية الاطراف، من آنٍ لآخر! إلى أن هيمَّن آخر الأديان الغازية على مملكة فاز البائدة، التي تحدر منها الملوك والحكام العامين الجنكويز!

❁❁❁

انكمش المريود في ركنٍ قصيٍّ من الزنزَّانة، وهو يستعيد في ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك والجغرّافيا والنّاس، وتتداخل الأزّمنة!

لكأنه يسقط في ثقبٍ زّمني منه وإليه.. يرى وجه الخليفة "تور الجر" كالحاً متجهماً يخلو من أي علامة صلاح!..

يرى أمراء (أم كواكية) فلا يستطيع تمييزهم عن الجنكويز، ويرى البلاد الأسيرة بسنواتها القاسية العجاف، المتجددة في كل عصر، فيتنهَد بحسرّة.

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزياً:

"لست الوحيد.. جرثومة الضلال والإستبداد ورثناها من أسلافنا في التاريخ الغابر، والتاريخ الذي نعيشه الآن!"

ثم يصمت لبرهة ويتابع:

"هؤلاء جميعا منذ عصر كهنة كليوة البائدة، أصبحوا بمرور الوقت، طائفة دينية مهمتها قلقلة الأهالي و إرهابهم وتخويفهم. جميعهم يمثلون عقلاً واحداً، لهذه البلاد الحزينة!.. أنه تحالف تاريخي رهيب؛ تجده في مملكة قرضاية، وفي دولة "تور الجر"، وتجده في الدولة الممتدة منذ منتصف القرن الماضي. وقدر صانع الفخار في كل زمان مواجهة، هذا التحالف!..

وأرتكني وعرقلة، وكسار ركب أم كواكية، وصانع الفخار الحفيد، ما هم إلا الشخص نفسه، الذي قاد هذه الثورة المجيدة، واستشهد في إعتصام القيادة العامة، لتحلق روحه، وتتماهىٰ في روح صانع الفخار.. مع كل الأرواح التي تماهت على مر العصور، في روح صانع الفخار الخالدة!

❁❁❁

من خلل أغصان الجُهنَّمية الحمراء، رأى ود دَبرق الغيوم الرّمادية، وقد حجبت ضوء الشمس الوهاج، والأرض المفروشة ببساطٍ ضبابي، وتنبه من شروده علىٰ زقزقة عشوشة، التي كانت تسعى جاهدة لاطعام فراخها الجدد. وبطبيعة الحال لم يتجرأ ليسألها السؤال المتوقع:

"أبناء من هؤلاء؟"

فهو يعلم قد يكون والدهم أحد طيور الموانئ، التي "ترِّك" على السفن، أو طائراً مدجناً لا يفارق سقف منزل قدّيم، وربما أحد تلك العصافير التي تتخلف سهواً عن أسراب هجرتها، فتنقطع بها السبل عن الأهل والأوطان.

وفيما هو منشغل بهذه الخيالات، كانت عشوشة توبخ أحد فراخها، الذي لا يريد أن يفتح منقاره، ليتلقىٰ منها الطعام، كان قد بدىٰ شاحباً كالعليل، وتساءل ود دَبرق ترى هل يشعر بأن حال عشوشة يزداد سوءاً، وهي تراه على هذه الحال المزرية!

❁❁❁

أنا "ود دَبرق بن زرزور الدوري"، ها أقعي الآن وحيداً، في عُشي بقلبِ شجرّة "الجُهنمية الحمراء" أتأمَل أحوال العالم والنّاس، في هذا البلد "القردود" غير آبهاً لزّمهريرِ شتاء، أو "صيفٍ قيطوني".. لامبالياً "ببرقٍ عبادي" أو زفيف "الهبايب والكتاحَات" التي تدفع، "اعصار الشيطان" ليُحاصر عالمي الصغير، ويبعثر عشي قشة قشة!

لم يعد في هذا العالم، ما يثير اهتمامي، حتى زّخ "مطر العينّة"، على غير عادته، في وحدتي البديعة، يتخلى عن مسؤلياته التاريخية، ويحصر هطوله في ذاكرتي.. يُغرقني فيما مضىٰ من وقائع حياتي وأحداثها المؤسفة!

من بين كل أفراد سلالتي عبر التاريخ، عشت طويلاً جداً، عاصرت أنبياء لا يعرفهم أحد، ولفتت انتباهي تعاليم "هرمس وماني ومزدك"، هؤلاء الذين لربما لم يكونوا يعرفون أنفسهم، كرسل لهذه البشرية المعذبة!

في مراهقتي الباكرة، قبل مئات السنوات، أحببت (عشوشة الأولىٰ)، عندما سمعتها تزقزق عند (قيف) النَّهر:

"أنا نرجس السنونو، سوسنة الأودية، بين الشوك، كالتفاح بين شجر العُشَّر واللعّوت، كذلك حبيبي بين الشبان"

يا لتلك اللحظات، عندما أتذكر تلك الشهوات.. الآن، رغم مرور مئات السنوات، أشعر كأنها تحدث للتو، فيهيج في

الشجن، ويتوتر فكري، وينتفض وجداني، وتحمَّر عينّاي وتغرورَقان شبقاً!

ثم كالآتي من إحدى الرِّحلاتِ الطويلة، طائراً لآلاف الأميالِ دون توقف. أُصوصو بصوتٍ أكثر رّخامة، من صوت طائر الكستناء!

ذلك الطائر الوحيد بين الطيور، الذي يعتقد البشر في قدرته على ترتيب الأصوات! بحيث تحمل معاني أو رسائل مختلفة على التواصل فيما بينها!.. الكائن البشري المغرور، يظن أن ما يصدر عنا، ليس سوى، همهمات غامضة لا معنى لها!

سيمضي وقت طويل، قبل أن يعرف، أنها أصوات مرتبة.. منسقة.. كما اكتشف "سليمان الحكيم" ذلك من قبل!..

بهذه الأصوات نتواصل مع بعضنا بعضاً، نعيد ترتيبها في نظام معين، حسب مقتضى الرسائل، المراد تمريرها لبقية الطيور أو طائر معين أو حيوان محدد! وغالباً لا نحتاج لمترجمين، في تواصلنا مع بعض الزواحف والمواشي!

تُرى كم من الوقت سيمضي، ليدرك بني الإنسان، أن الأصوات التي يصدرها أبناء جنسنا من قبائل الطيور، هي لغتنا في التواصل مع هذا العالم، المسكون بصمت الحقيقة، والغارق في مآسي البشر؟!..

وأنهم لَيسوا الوحيدون بين الكائنات، الذين يفكرون ويستطيعون الكلام!

❀❀❀

ثم ماذا عني أنا المنشق المريود؟

باختصار يا سادتي أنا كغيري مثل كثيرون عبر تاريخنا القديم والحديث، كنت مجرد أداة.. أحد الأدوات التي تريد إلغاء هذا التاريخ، وكتابة تاريخ جديد، من وحي أفكار الشيخ الهميم وكهنته، الصادرة منهم هم كبشريِّين، والمستلهمة لتاريخ من الجبر والاستبداد الصّحراوي البدوي.

الهميم العَرَّاب مثله مثل أي بشري طامح في السلطة والهيمنَّة، يرغب أن يكون مختلفاً عن الآخرين.. كنت تلميذه النجيب، الذي يعيش أشواقه وتهاويمهِ وأحلامه وطموحاته البشرية! كانها أوامر إلهية..

هذا ما كنته انا المريود جبر الدار المريود، وكما علمتم، أني لم انحدر من أسرة من أعيان البلدة القديمّة، أو عائلاتها الجنكويزية الكبيرّة، فسلالةِ أبّي عبر تاريخها القديم؛ بعد أن فقدت نَبالتها، ظلت تمتهن صناعة الفخار.

وعندما ضربتها رياح التطور، امتهنت صناعة مشغولات السعف بدء بــ "فتل" الحبال وصناعة ("البروش والنُطوع والمقاشِيش والمشلَعيبات وتجليد البنابر والعناقْرِيب")، مروراً بحفرِ الآبار والزرَّاعة في مشاريع وضع اليد - خارج التخطيط- و بناء "القطاطي والرواكيب" و"ربيط" "عروش" بيوت الطين!.. ومع ذلك كنت واحداً من أعضاء "حزب العرَّاب" المهمين القلائل!

منذ حداثة سني! لم أمارس مهنة أجدادي، ولم أتعلم في الخلاوى، بل لم أقرأ أي من الأناجيل أو التورّاة، التي آمنوا بها في الماضي السحيق، ولم ينتابني أي نوع من الفضول، للتعرف على إلاههم "أبا دماك" بل نلت تعليماً مدنياً رفيعاً، إقتداءً بسنة العراب الذي نال تعليماً تخطى إجازة القانون!

❁❁❁

عندما كانت السُرَّة في ريعان شبابها، كان غاية حُلمها الرّحيل عن هذه البلاد الأسيرَّة، وفي الحقيقة لم يكن ذاك حُلم السُرَّة وحدها، فقد حلم شباب وصبايا البلدة القديمَّة جميعهم الحُلم نفسه.

في صباها خرجت ذات مرَّة من البلدة القديمّة مقررَّة الرَّحيل، ولكن فكرَّت بأن تؤجل هذا الأمر، إلى أن تختطف يد القدر والدتها، التي تعاني من كل علل البلاد الأسيرَّة..

أحست السرّة وقتها أن انتظارها لن يطول، فالزَّمن المرتقب في طريقه إليها.

السرَّة تعذبت في حياتها كثيراً.. خدمت طويلاً في بيع الكِسرّة والطعمية واللقيمات، وقبل أن تركن إلى دُكّانتها، التي تبيع فيها التوابل والعلاجات الشعبية، كانت قد عملت قبلها لسنوات في بيع الشاي، الذي تركته لتخدم في البيوت.

ذات مرَّة عملت خادمة عند إحدى العائلات الثرية، إلى أن قرَّر رَّب العائلة الملتحي المتخم، أن يتخذها عشيقة بمنأىٰ عن عيون زوجته، فصممت على إنهاء خدمتها، وغادرَّت البيت، مخلفةً وراءها مرارّة قاسية. ومن ما ادخرته في سنوات معاناتها، افتتحت محلها الخاص للتوابل والأعشاب والأدوية البلدية.

وقتها كان أهل البلاد الأسيرَّة قد هبوا إلى ثورَّتهم الثانية، فأحرقوا بيوت الجنكويز والتجار الجشعين، والعسس السري، ورجال الدولة الفاسدين. كان كأن ألف شيطان انطلق من الجحيم، ليحل في أجسادهم الناحلة وأرواحهم المعذبة.. يحرقون ويضربون من يعترض طريقهم، ولسان حال كل منهم يقول:

”لا أستطيع أن أتحمل الظلم بعد اليوم“

كانت أخبار الثورَّة قد انداحت وتمددت. تملأ أركان الدنيا الأربعة، وأخبار الأهالي الثائرين الرّهيبة، تُغرد بها طيور الخلاء، ويحملها عواء الذئاب وأصوات زواحف الأرض وحشراتها.. حتى الهوام التصقت في جلود الدواب، وتطوعت لتحمل الأخبار من مكان إلى مكان..

الرُّعاة الرُّحل الذين تقطعت بهم سباسب الصحاري ووهادها، سمعوا بما جرى! وما من أحد لم يكن يتوقع أن ما حدث سيحدث، فقد تفجرَّت آخيراً قلوب الأهالي، بما انشحنت به من آلام وعذابات قرون طويلة، ضد هؤلاء المستعمرين المحليين، الذين لطالما اعتقدوا أن السوط سيُخمد النّيران المشتعلة في قلوب الناس، أو ربما ستكون الخناجر أو المشانق أو حتى البيع بالمزاد العلني، في ساحات أسواق النخاسة، وسماسرة العقارات والاراضي في القبل الأربعة، سيكون كل ذلك رادعاً لنقمتهم الجامحة. والغضب لما حل بهم و بثرواتهم!

خطر في ذهنهم أخيراً، أن المعاملة اللطيفة، من شأنها أن تحد من اندفاعِهم، فما كان من الحاكم العام وَزوجاته العديدات، إلاّ أن تخلوا عن كبريائهم الزائف، وقصدوا زائرين مبتسمين، بعض الأهالي ممن كانت تربطهم بهم صلات فيما مضى، قبل استيلاء الحاكم العام على السلطة، لكن كان الوقت قد تأخر كثيراً علىٰ الإعتذارِ أو النَّدم!

لطالما تساءل ود دَبرق فيما إذا عاش هؤلاء جميعاً، بمختلف مللهم ونحلهم! حيَّاة مشتركة. لكانوا سعداء؟

لكن الأمور لا تمضي على النحو الذي يتخيله، أو تبشر به حكايات الجدّات، وهن يسردن على أحفادهن، انتصار الخير على الشر في نهاية الأمر، ليطردن من أذهانهم شبح الصرَّاع على سقط متاع الدنيا، ويعدن بالخير الوفير في خاتمة المطاف والأمن من الخوف والجوع.

ما رآه ود دَبرق في الثورّة الثالثة، في ذلك اليوم، كان حكاية من نوع آخر، فهي حكاية لا يمكن أن يطويها النسيان، فقد بزغ فجر يوم طالما توقعه، ويدرك أن كثيرون حلموا به! يوم شهد هروب الجنكويز، ولعلعة الرصاص في الأجواء!..

فما أن رَّك في ذلك اليوم ينضو عن ريشهِ وعثاء الطيران، وانهاك التحليق، حتى خيل إليه أن ما يحدث هو يوم الحساب العظيم، فيما كانت عشوشة وقتئذ قابعة في عشها مذهولة متسائلة عن سر هذا اليوم الغريب، الذي انشقت فيه الأرض عن بشر لا عد ولا حصر لهم، حتى خيل لها أن الأموات عبر الاف السنوات بُعثوا من جديد، وتدفقوا مع الجموع الهادرة.

❀❀❀

لم يكن ثمّة من يتوقع هذا التفكك المريع لـ"نظام الحاكم العام" الذي لطالما زعم أنه لن يسلم السلطة، إلا للسيِد المسيح المنتظر!

حتى أنظمّة الجوار كانت تنظر إليه "كسوبر نظام" لم تهدَّه هبات الجماهير ولا انتفاضَاتها. لم تهدّه الانقلابات والتحرّكات العسكرية المناوئة. لم يهدّه غزو القوّى المسلحة، التي توغلت داخل أحياء حاضرته.

كان كالقط ينجو في كل مرَّة أشد تماسكاً، أو هذا ماكان يطفو على السطح، الذي يُخبئ تحته "ميت بحر" لم تنقذه قشّة، ولا كل نباتات عُشبة معونة النيل الوديعة!

فجأة أو كما اعتقد كثيرون، أن ما حدث حدث فجأة، انقسمت الأجهزّة الأمنية والجيش والمليشيات، في اللحظة ذاتها التي تفجرَّت فيها شوارع حاضرَّة البلاد الكبيرة ومدنها!..

تلاميذ المدارس. طلاب الجامعات. رّبات البيوت، المزارعين السابقين، أرباب المعاشات الإجبارية، والمحالين إلى الصالح العام. القرى والفرقان.. الحلَالات والبلدات.. ضحايا التعذيب والاعتقالات التعسفية..

أرواح كل "فطايس" الحرب! قتلىٰ حرب الصعيد الطويلة.. الكنداكات.. ضحايا الاغتصاب والنظام العام والعنف المنزلي!

لم يكن ثمّة أحد لم يخرج ليملأ الشوارع بالهتاف ضد الرصاص المضاد، للشعارات الغفيرّة التي ترددها الجموع، التي جاءت من كل فج من فجاج البلاد الأسيرّة.. مشياً علىٰ الأقدام.. على ظهر الحمير والخيول والجمال! المواتر، الرّكشات والبصات. حتى القطار الذي يقسم البلاد الأسيرَّة بطولها وعرضها، أخذ يتغشىٰ مدن الصعيد.. السافل ودار صباح، التي تزّاحم سكانها تلبيةً للهتافاتِ المدوِّية، التي حاصرّت القصر الجنكويزي العام. وقيادة الجيش ومبان العسس السرِّي!

كان الأعمىٰ يحمل المكسر.. رجال الطرق الصوفية وكبار السن والجدَّات.. كل هؤلاءِ وأولئك ضربوا بخروجهم على الحاكم "الفتوى التي كفرتهم جميعاً" عرض الحائط، وخرجوا يلتحمون مع الجماهير التي سبقتهم؛ لا تخشىٰ دوي الرصاص الذي هطل كالمطر، وملأت دماء الشهداء ميدان الاعتصام والشوارع.. الأحياء.

لم يتراجعوا.

كان الجميع مصراً على إسقاط الحاكم العام ونظامه أو الموت! وهم يهتفون ملء حناجرهم البهية: "الحرية أو الموت!"..

❁❁❁

وهو يحلق في سوق السعَّف، رأى عوَّج الدرب يدخل راكوبته، وقد اندفع وراءه عدد من صبية الورنيش المضطربين وعمال الدباغة، وصرخوا جميعاً بصوت واحد:

"انهض يا ود البصير.. انهضي يا خالتي السُرَّة، وشاهدي الخلاص لقد أصبحنا أحراراً"

أمسك أحد صبية الورنيش بيدي السُرَّة، التي لطالما أطعمته، والدموع تنساب على خديه. لفحت السُرَّة ثوبها وسوَّته، واتجهت نحو الطريق لتشهد اليوم العظيم.

في ذلك اليوم رأت المتكبرين والمتعجرفين يخرون أذلاء، تضرب جنوبهم المسكنة، وقد ألقيت من نوافذ دورهم ملابس الحرير الخضراء والمخملية!

كما رأت العديد من المشردين، يسحقون حديقة القصر الكبير، بأقدامهم. ويشرعون البوابة الكبيرة على مصراعيها..

كان في داخل ذلك القصر الكبير أحد سادة الجَنكويز العتاة وزوجَاته وأهله، انتزع هذا القصر من أحد الأهالي الأثرياء، واستولى عليه بوضع اليد، وجعل الحرس على أبوابه..

ها هو يسقط الآن تحت هتافات الأهالي، الذين لاشئ يمنعهم من عبور كل بوابات الدنيا، في هذه اللحظة المجيدة!.

حزم ود البصير ما تيسر من منهوبات في قطعة من القماش، ووضعها على رأسه وخرج باتجاه السافل!

❁❁❁

ذلك الصباح القارص، والشتاء يتثاءب في الخلايا والعظام، لمحت نطعاً من السعف.. كان نطعاً مزركشاً بألوان" التفتة" والحناء، ومحلى في ذوائبه بالودع وصدف البحر الملوَّن!

بدىٰ واضحاً من زرْكشته البديعة، أنه صنع بأيدي نساجات ونساجين متعددي الخبرَّات، في دار الريح والسافل، فزَخرفتهِ لا تشبه أية زخرّفة رأيتها من قبل.

حدثتني نفسي بضرورَّة الحصول على سعفات من هذا النطع الجميل، أهديها لعشوشة تزركش بها عشنا.

وفيما كنت اتفحص النطع، قفزت إلىٰ خاطري ذكرى بعيدة، ليومٍ عابر، في تاريخٍ غابر، من سنةِ المجاعة الأخيرّة، في الأعوامِ السبعة، الّتي تلت فيضان النَّهر.

وقتها انتشرت الأمراض والأوبئة والحشرات، وأقحَلت الأرض حتى صارت بوراً وجف الماء، تفشت الكوليرا والملاريا بين الناس، وأسقطت النساء أحمالهِن، وتدهورَّت حال الحيَّاة، فتجمع الأهالي تحت شرفةِ قصر الحاكم العام يستعطفونه، وهم يستعيدون في ذاكراتهم مبتدى انقلابه، وما بذل من وعود، بعد أن رّمى بالحاكم العام السابق ابو كردوس في السجن، حيث قُتل وهو يحاول فض عراك مفتعل نشب بين سجناء عنبره!

ومن ثم قُبيل أن تنتهي شهور عدّة زوجة الحاكم العام السابق، تزوجها ودخل عليها!.. وكنت أنا ود دَبرق الشاهد الوحيد على كل ما جرىٰ، رأيته وسمعته، من أعلا أغصان الجُهنَّمية وهو يهدئ الأهالي.. ويعدهم، ورأيته بعد انصرافهم من قصره، الذي كانوا قد حاصروه، وهو يأمر عسسسه السري خلسةً، بقتل من "حان أجله" واعتقال الناجين!

مثلما رأيته وسمعته قبل عقود خلّت، وهو يتلو بيانه الأول على مسامع الأهالي، يبشرهم بفجرٍ جديد! نعم، مرةً أخرى رأيته، في ذلك اليوم البعيد، عندما حطيت على السلك الشائك، أثناء تفقده ثكنات الضباط الجديدّة.

رأيت عينيه وهما تتناهشَان جسد امرأة جميلة، تعبر أمام إحدى الدور. أخبره عسسه السري أنها، زوجة صديقه قائد الجيش، ولم تمض سوى أيام قلائل، حتى انفجرت طائرة ذلك القائد أثناء عودته، من أحراش الصعيد..

سيسألني أطفالكم وهم يطاردونني كعادتهم بالنبال:

"وماذا فعلت زوجة القائد"

صه! أنَها ليست قصة قبل النوم! أنَها الحقيقة، لقد فرحت فرحاً شديداً، فقد أبدلتها الروح العظيمة، ما هو خير من زوجها!

عندما سمع الحاكم العام شكوَّى النّاس، الذين أحاطوا القصر كأسورّة، أرسل صديقه المقرَّب الترح قائد العسس السرّي، إلى منزل الشيخ العراب "كبير كهنته" فأبلغه كبير الكهنة، أن البلاء لن يحل عن هذه الدولة، إلا بعد القصاص من قاتل قائد الجيش!

فأرسل الحاكم العام إلى كاهنٍ يدعى "حاضر الغايب" كان على علمٍ بقصة قتل قائد الجيش، لعله يصل إلى دليل محبوك لقاتل آخر، وكان "الغايب" في آخرّيات أيامه، يريد أن ينأى بنفسه عن الأكاذيب، التي لطالما صاغها، ليستخدمها الحاكم العام، لدحض أكاذيب هذا الشعب المفتري، فتهرّب عن الإجابة!

لكن قائد العسس السري هدده وأصر عليه، فقال له:

"لقد تعبت من الأكاذيب، وأرى أنكم لستم بحاجة لمن هو مثلي، فقد فقتموني، يمكنكم تلفيق أي شئ بسهولة وسيصَدقه الناس كما أعتَادوا. لكن، أبلغ الحاكم العام عنِّي، أنه هو القاتل، وما لا يعلمه أن القتيل شقيقه"

فصعق قائد العسس السرّي وأرغىٰ وأزبد وهاج وماج:

"أنت كاذب"

”لقد أنفقت عمري كله في الأكاذيب، حتى لم يبق منه شئ، وهذه هي الحقيقة الوحيدة، وإن شئت فاذهب إلى العراب الهميم كبير الكهنة، فستعلم حينها صدق روايتي“

نعم، أنا ود دَبرق رأيته بأم عينَاي وسمعت ما دار بينهما من حوار!..

بل قبل عقود خلّت، خلدت إلى أعلى سور أحد البيوت المطلة على كومة قمامة كبيرة كجبل صغير، ورأيت إمرأة ترمي بطفل، ذلك الطفل أصبح في مقبل الأيام قائداً للجيش! نعم، شاهدت كبير الكهنة، وهو يلتقط طفلاً حديث الولادة، مُلقى في كومة القمامة تلك، فحمله وتبعته حتى وصل إلى داره، وكان أن وجد الغايب هناك بانتظاره في شأن من شؤون الدنيا!

وهكذا لم يعرف أحد سوى الشيخ الهميم كبير الكهنة والغايب، حتى هذه اللحظة التي صعق فيها الترح قائد البوليس السري، الذي لطالما توهم أنه يعرف الشاردة والواردة، وما تسر به أنفس الأهالي ولا تعلنه، وهو على كل شيء قدير!

❁❁❁

في أمسية من أواخر الصّيف اللحوح، لذلك العام الكئيب، جلس ود دَبرق على غصن شجرّة الجُهنمية ليبدأ في استعادة ذاكرته وما ارتبط. بها من وقائع وأحداث، لعصافير في مشارق الأرض ومغاربها، ربطته بهم صلات طيبة!

كانت أفكاره قد ترتبت تماماً في ذهنه، واختفت تلك السُحُب التي كانت تُحيطها. وكما جرَّت العادة، أخذ يضرب الهواء بجناحيه، دون أن يطير، عله يبعث شيئاً من النشاط إلى جسمه المتلهف، منذ أيام للقاء عشوشة!

وفي اللحظة التي شرع فيها "ود دَبرق" باستعادة ذكرياته التي لا قيمّة لها. كما ظن وقتها!.. ولكن بعد عشرات السنوات، سيعثر على هذه الذكريات فريق من المستكشفين القادمين من عالم آخر بعيد جدّاً، ويقرأون ما خطه ريش ود دَبرق على قشر بيض عشوشة المتحجر، الذي وجدوه مغموراً تحت أمتار من رماد أسود، غطّى سطح الأرض بالكامل.

وبذا يكون "ود دبرق" قد تمكّن أخيراً من تحقيق الخلود لاسمه، بوصفه الكائن الذي استعاد ذكرياته على قشر البيض الذي لم يكتب له التفقيس، فكان شاهداً على انقراض، آخر شهود محتملين لعصورٍ بائدة.

في الحقيقة، لم تتجاوز ذكريات ود دَبرق سوى أسطر زَقزقية قصيرة، فيما انطوت عليه مخطوطات الخزين، التي جاء فيها:

"في البدءِ كانت الروح العظيمة. خلقت الديناصورات، بكلمة منها، فجاء الكهنة وسائر الحيوانات. ثم الطيور، فالبشر الذين أخترَعوا آلات الدمار، التي قتلو بها بعضهم البعض، ثم لم يبق شئ سوى بيض عشوشة المتحجر! الذي ربما يجده عالم آثار مغفل بعد مئات السنوات، فيظن أنه حصل على الإجابات الشافية حول ما جرى! فيُترجم كل العبارات، التي على قشر البيض إلى معانٍ لم تخطر على بال ود دَبرق مطلقاً!

حتى تلك العبارات التي تصف حال العُميان، يظن أنها تتحدث عن قومٍ بوسعهم الرؤية إلى مدى أوسع من راحة البال!

❀❀❀

وفيما روى (الهُدْهُد بن زرزور الدوري) على هامش مخطوطة "صانع الفخار"، نقلاً عن الخزين، أنه وقبيل سقوط (مملكة كليوة) بقليل، كان ثمة شعب من كهنة الإله (أبادماك) بعائلاتهم وخدَمهم وحشمهِم، يعيشون في ثكنة منفية، ظل ملوك الرُّماة يخصِصونها لهم.

هذا الشعب الصغير، كانت ثكنته أشبه بمدينة صغيرّة بمسرّحها الديني، وشعرائِها الفحول، ومغنييّها ذوي الأصوات العذّبة، ونسائها الجميلات. لكن ودون توقع، اختفى هذا الشعب الصغير، قُبيل سقوط كليوة بقليل، ولم يُعثر له على أثر، بل لم يتم العثور على أي شئ، منحوت أو مدّون يشير إليه!

بل عبر عشرات الأجيال، كان بعض الأهالي يتواترون عن أسلافهم الحكايا، بأن هذا الشعب الغائب، تفرّق في أركان الأرض، وسيأتي ذات يوم بكل العلوم، التي جمعها عبر مئات السنوات، من مختلف الحضارات، ويقيم حضارَّة لم ولن يشهد العالم مثلها!

فيما أفراد عائلة الببغاء العريقة، يتفقون على أن هذا الشعب وحضارته مفقودان، وأن صانع الفخار عندما يظهر، ستقوده طيوفه، طاوية المكان والوقت، إلى حيث تعيش أجساد طيوف هذا الشعب مفقودة في منحنيات الزمن!

بحث المريود في كتب المؤرخين، و(القوالين) من كتبة التراجم والسير والمذكرَّات، الذين دونوا مشاهدات عصرهم ومشاهد حياتهم، عسى أن يجد ما يشير إلى هذه الحكايات، التي أوردها الهدهد في هوامش بحثه الشهير!

تلك الليلة تعشى وَد دَبرق مع عشوشة.. وعلى الضوء الوردي الحالم لحشرّات الخنفس المضيئة، التي كانت تحلق في فضاء العُش الصغير، بدلاً عن أن يتحدثا عن الحب، تحدثا حول هذا الأمر، الذي عندما أخبر عشوشة عنه، قالت وهي تهز جناحيها:

"من أين جئت بهذه الحكايا"

فقال:

"هوامش الهدهد على مخطوط صانع الفخار"

وفي الحقيقة هذه الهوامش والمذكرات جميعها، كتبها الخزين، زاعماً أنه سمعها من منقاري الهدهد وود دبرق، إلى أذنيه حيث تناهت إلى أذنيه مباشرة، مؤكدا على إلمامه الواسع بلغةِ الطير والحيوَّان!

وهكذا، منذ سمعت عشوشة بما ورد في المخطوطة؛ لم تعد المخطوطة شاغل ود دَبرق وحده، إذ بدئ أنها انغمست فيها أكثر منه! إلى درجة أن فوجئ بها، في عطلة نهاية

الأسبوع، تدخل عُشِّهِ ليرافقها إلى حيث عثرت مصادفة، على حقيبة بلاستيكية مهترئة، لم تدر محتوياتها لوهلة، فابتسم شادياً كالبلبل، وهو يمسح بعينيه الكتب واحداً تلو الآخر، ثم هَدَل كاليمام مجيباً على التساؤل، الذي أطل من عينيها الحائرتين:

"كتب تاريخ.. تاريخ البلاد الأسيرَّة"

فقالت مذهولة:

"لم؟"

"يبدو أن الصدف تريدنا أن نعرف حقيقة ذلك الشعب الصغير، الذي اختفى، دون أن يترك خلفه أثراً! قد نجد إشارة أو معلومات ما في هذه الكتب"

وهكذا شرعا في صفير خافت يقلبان بمخالبهما في صفحات الكتب:

البلدة القديمة عبر القرون: لحمام بن يمام البطي، تاريخ البلاد الكبيرة: لطاؤوس بن بطوط الهدهودي، مدخل إلى تاريخ دار الريح: للبوم بن أبي الجديان الشاهينشاهي، تاريخ دار صباح الحديث: لحسون بن زرزور بن أبي عقاب الجبلي، إلى آخره من دراسات وأبحاث محققة لجهابذة مؤرخين وآثاريِّين شعوب الطيور المقيمّة

والمهاجرّة، والتي شارك في تحقيقها، بعضا من البعثات الهامة لعلماء التاريخ والآثار، من ممالك طيور الحبارى، والنسور، والعقبان، والدوري وأبومركوب في الشرق الأقصى وسيبيريا والهند والسند وفارس!

الذين قاموا في الحقيقة بترجمتها أيضا إلى لُغَّات الطير الحيَّة، في مراكز تفكير الباقير، ومعهد أم جكتي للتاريخ المعاصر!

وعلى مدى أكثر من شهر، قلب ود دَبرق بجناحيه صفحات تلك الكتب، التي ظن أنه ربما يجد ثمّة ممرًا، يلوح منه ضوء فيعْبراه إلى حيث يجدان معلومات وافية، حول ما حكىٰ الهدهد! لكن دون جدوى!

ليس ثمّة ما يُشير، إلى أن ما أورده بروفيسور هدهد، ينطوي على أي قدر من الصحة! الأمر الذي يشكك في نزاهة أولئك المحققين من آثاريين وعلماء تاريخ!

❁❁❁

سأل الجنكويزي راكب الفرس السوداء، الأهالي المتجمعين على مبعدة من الأنقاض المحترقة لكنيسة البلدة القديمة:

"من رأى منكم صانع الفخار الحفيد؟"

فرد أحدهم:

"لقد مات مقتولًا... منذ اليوم الأول للغزو.."

تعالىٰ صوت متوتر من خلفهم:

"يقال أن بعض الأهالي عثروا على جثته، على مبعدة من (الجاسر) فدفنوها محل شجرة اللعوت، التي حلّت محلها النخلة!"

ارتفع صوت أحدهم:

"لا بل يقولون أنه غادر إلى دار الريح، قبل الغزو بأيام!"

"بل غادر إلى الصعيد يا رجل، جميعهم يقولون ذلك!"

"ومن ذاك الذي دفن تحت النخلة، أليس هو؟"

"كيف يكون هو؟.. هو لا يموت؟!"

كانت رأس الجنكويزي تستدير تجاه كل متحدِّث، وعيناه تتسعان دهشة. لا يصدق ما يتحدث به الجمع!..

جز أسنانه.. نفرّت عروق جبينه وعنقه.. ترجل عن فرسه، وانتصب وسطهم كمارد ممشوق. ولشدة خوفهم، خيل لهم أن عنقه تستطيل وتستطيل، حتى يختفي رأسه خلف السحاب!

ارتعدت فرائصهم من الخوف، وهو يصرخ في وجوههم كالمجنون:

"هل جننتم؟ لا يموت؟ أي أنسي هذا الذي لا يموت؟"

فقال أحدهم في خوف:

"أنه مربوع القامة"

فقاطعه آخر:

"لا بل طويل جداً، حتى يقال أنه يمد يده يشوي السمك، الذي تهبه له صديقاته حوريات النهر، في الشمس!"

تحسس الجنكويزي سيفه، وهو يستشيط غضباً:

"جميعكم كفرّة كاذبون، ويبدو أن أحدكم لم يراه، أو يعرفه!"

فأكد أحدهم:

"كل من رآه للمرّة الأولىٰ، كانت تلك هي المرّة الأخيرّة!"

فقاطعه أحدهم قبل أن يسترسل:

"بل لم يرَّه أحد لا أولًا ولا آخيراً، فهو لا يلتقي البشر! فكيف يتحدث معهم؟!"

كان واضحاً أن الجنكويزي، قد أصابه اليأس والقنوط، فاستسلم. شد لجام فرسه، وقفز على صَهوته، وانطلق مبتعداً يتمتم بكلمات مبهمة، تاركاً الأهالي خلفه يصطخبون، حول أمر صانع الفخار!

وفيما هم يتغالطون، كان الهدهد الحفيد، يلتقي لحظتها صانع الفخار، ويخبره عن قتل الجنكويز لحبيبته "الكنداكة!"

اتكأ صانع الفخار على ذاته، وهو يشعر بنصلٍ حاد يخترق قلبه.. تماسك قليلًا قليلًا قبل أن يسأل الهدهد:

"من يَجيئني بقاتلها؟!"

لم يجد الهدهد جواباً، وود لو قال له:

"أنا آتيك به قبل أن يرتد طرفك"

لكنه لم يجرؤ، فاشاح بوجهه الشاحب، حتى لا تقع عينيه على عيني صانع الفخار. كانت أعماقه مرتبكة، مهزوزّة. نكس رأسه ثم عاد فرفعه، وجاهد بمنقار مرتعش كي يقول

كلمة واحدة، لكن جهاده لم يثُمر، فخرّ متهالكاً على جناحيه، حتى تخلعت بعض ريشاته، فأخذ يتمتم بهَدهدة غير مفهومة!

حدّق فيه صانع الفخار ملياً، وهو يتراجع إلىٰ الخلف، دون أن ينبس ببنت شفة. و كفقاعة في ذلك المساء الحزين انطفأ!

كان قد اختفى تاركاً الهدهد وحده، الذي ما لبث أن انفجر في عاصفة من الهدهدة الأسيانة، تتناهشه المخاوف والهواجس والظنون!

❁❁❁

فيما الأفكار تشتعل داخلي، كان صديقي طائر الكستناء الملكي يصوصو "جج.. جك. جكجك.. جك..) أثناء إطعامه لفراخه! كان يقول أنه سيعاقب كل من لم يأكل منهم. ودهشت كثيراً حين التفت إلى قائلا:

"جكجج..كج..كجكج.."...

كان يسألني إن لم أكن مرتبطاً فجر الغد، لنطير معاً، إلىٰ مكان وفير الغذاء اكتشفه، مصادفة، أثناء طيرانه، بحثاً عن طعام لفراخهِ حديثة التفقيس!

ربما يعتقد الانسان ـــالمغرورـــ باستعلائه، وسعيه لإلغاء اللُغَّات الأخرى وإحلال لغته محلها أن لغتنا، البسيطة، ليست سوى ظاهرة بدائية من ظواهر الأقليات والشعوبيين، في شعوب وأمم الطير! فالإنسان كعادته يحب مغالطة الأرقام، ولي عنق الحقائق، وطمس هُوِّية كل ما هو ثابت علمياً بالدليل، إذا تعارض مع توجهات ثقافته السائدة!

❁❁❁

انكمش "المريود" في ركنٍ قَصّيٍ من الزنزّانة، وهو يستعيد وقائع حياته، في ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك والجُغرافيا والنَّاس وتتداخل الأزّمنة!

لكأنه يسقط في ثقب زَّمني منه وإليه! يرى وجه الخليفة (تور الجر الثاني) كالحاً متجهمًا!.. يرى أمراء "أم كواكية" فلا يستطيع تمييزهم عن "الجنكويز" فيما البلاد الأسيرَّة، هي ذاتها بعجفها المتجدد في كل عصر! يتنهد بحسرَّة. وتَجري على خديهِ دمعتان مشنوقتين!

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزياً:

"الأمر لا يستحق، يا مريود. الأمر لا يستحق يا عزيزي"

❁❁❁

"نعم مستحيل"..

أنا المنشق المريود رجب المريود. أؤكد ذلك، فجُذوري تمتد إلى كليوة. أسلافي هم أولئك الأمراء والنبلاء، الذين فروا بجلودهم، ليتحَالف أحفادهم مع أحفاد جلاديهم الغُزّاة، الذين خربوا موطنهم البديع!

لذا عندما أتساءَل الآن، إنما تتفجر أسئلتي، من منبع جراحات قديمّة، لم تستطع مئات السنوات، التي عبرّت على أجدادي، أن تطمرّها بالنسيان فتندمِل!

تُرى هل كنت الوحيد الذي مر أسلافه، بهذه التجربة؟.. أبداً. لا، لا.. فالجنجوِيد الهاربين من قمع أبناء عمومة نبي الدِّين الجديد، الذين دانت لهم السلطة، على إرث ذلك النَّبي، هربوا من صحاريهم القاحلة، وحلوا ضيوفاً– لاجئين، في القبل الأربعة للبلاد الأسيرَّة.

هؤلاء الجنكويز، كالُملهمين من قوَّى خفيَّة، فجأة نشطوا في كل أنحاءِ البلاد الكبيرة، التي لجأوا إليها، يصاهرون رؤساء القبائل والأعيان!

ومثلما تمكنوا من القضاء على كليوة، بمثل هذا النوع من المصاهرات، التي انبنت عليها تحالفات، يسعون الآن لتأسيس مملكة خاصة بهم على أنقاض فاز!

وهكذا من العدّم على أنقاض كليوة وفاز نهضت (مملكة قرضاية السمراء) بتحالف هؤلاء الجنكويز مع النبلاء والأمراء، الذين لفظتهم كليوة البائدة، بسبب تكالبهم على الملك، للحصول على قلب امرأة تأكل وتشرب وتتغوط، وتحيض ككل النساء؟!

تحالفوا مع الغُزَّاة، رّغبة في الانتقام، من مملكة كليوة التي حرمتهم الزواج من حبيبتهم، دون أن يعلموا، أنهم في هذه اللحظة، يكونون الجنين الذي ستنجبه دولة تور الجر الجنكويزي. بعد مئات قليلة من السنوات!

وما حدث في الصعيد والسافل ودار صباح، هو الشئ نفسه الذي حدث في دار الريح، إذ نهضت ممالك القبل الأربعة للبلاد الأسيرّة، في تحالف الجنكويز، القادمين عبر الصحراء الكبرى ودرب الأربعين.. والأخدود الملون، لتشكيل هذا اللقاء الفريد بين دار الريح ودار صباح.. و لحكم كامل تراب البلاد الكبيرة، في "دولة الخالد تور الجر!"

كيف ننظر لكل هذه التحالفات الثنائية، في منعطفات مصيرية، عبر خلالها تاريخ البلاد الأسيرَّة، فوَسمته بما نراه الآن؟!

هل كنت أول المنشقين؟ لا، ولم أكن آخرهم، فكثيرون مثلي، كرهوا رؤية هذه التحالفات، التي زادت الناس فقراً

وقهرتهم، فزرعت فيهم الخوف من كل شئ، وتسببت في كل ما حل ويحل بهم، إبتداءً من جرائم الزِّنا واللوَّاط، وانتهاءً بحالاتِ الطلاق والانتحار، فالبلاد الكبيرة التي لم يكن بها سوى حلفين فقط: "المقدس سره" و"صانع الفخار؟!" انقسم الحلفان لعشرات الأحلاف الموالية والمعارضة، يميناً ويساراً ووسطاً!

في كل زقاق من أزقتها حزب موال ومعارض، في كل بيت.. في المحال التجارية والميادين والمركبات العامة، وتحت الأرض وفوقها!..

وعلى فروع الأشجار، وأعماق النّهر! أحلاف وجواسيس في كل مكان! وجميعها تدَّعي الإيمان بوحدة مكونات الشعب من إنسان وجغرافيا، وشجر وحجر، طير وزواحف، ونباتات ومشاة على قدمين وثلاث وأربع!

أوليس ود دَبرق من مكونات هذا الشعب؟

إذن لماذا تَتفقون جميعا على أصطِياده؟!

بل حتى شعوب البلاد الأسيرة المتوحشة، التي هجرّت الغابات والأودية والأنهار، بسبب الحروب الأهلية طويلة الأمد، التي وجد جنكويزها في الغابات والوديان والجبال، ملاذاً آمناً، تعهدوا بإعادتها!

كيف لا أكون انقسامياً، في وطن كل ما فيه منقسم؟!..كل شيء ينشق عن كل شئ، مع الفساد الذي خلق مجتمعاتاً مأزومة، ضد نفسها!

أحلاف دمرَّت مشاعر كل كائنات البلاد الأسيرة الحيَّة.. أينما تلفت لا تجد صديق أو رفيق، حتى أُخوة الحلف الواحد، أصبحوا أعداء يتحينون الفرص للانقضاض على بعضهم!

أنا المريود لَمْ يَعُدْ عندي رَفيق! ولذلك انشقيت؛ وفي نفسي حُلم أن أُكوّن "حلفاً للمنشقين"، أنا رئيس الحزب وأنا كل الأعضاء، ولن استعذ بالله من هذه "الأنا" فمن مثلي؟

ليس ثمّة ما يخيفني سوى شيء واحد، أن انشق عن حلفي الذي كونته بنفسي كما فعل العرّاب الهميم، وكما كان "تور الجر" سيفعل، لو لم يمت بعد استرداد البلدة القديمة ومحاكمته وبطانته بأشهر قليلة!

❁❁❁

”العرَّاب- الهميم“ الذي ورِّث عن جدَّه المقدَّس سرَّه الأول، كل جينات الخبث والدهاء، بعد كل ما صنعت عائلته المجيدة، من أمجاد؛ عبر تاريخ البلاد الكبيرة، ها هو يموت الآن؛ كجيفة بائسة دون ورِّيث! مخلفاً أتباعه يتامى، لا وجود لهم دونه!

سلالة المقدس سره على أُخريات عهودها، اضمحلت خصوبتها في إنجاب الذكور، ولم تعد تنجب سوى الإناث، لذا فكر آخر المقدسين في ملءِ الفراغ، بالبَحث عن طفلٍ يتبناه، ويُنشئه على مبادئ سلالته الآيلة للانقراض، فوجد ضالته ذات صبيحة غامضة، عندما كان متوجهاً خارج البلدة القديمَّة..

إذ رأى على إحدى أكوام القمامة لفافة بيضاء تتحرك، كان بداخلها شئ حي، وعندما التقطها وقعت عيناه على طفل حديث الولادة، فتبناه في الحال.

كان هذا الطفل الجنكويزي الصغير، هو ما سيصبح ذات يوم تور الجر الثالث قائد الجيش، الذي كان من نعومة أظفاره، لايكاد يرفع عينيه بوجه أحد.. دائماً يبدو مكسوراً ومنكسراً منذ وَّعى الدنيا في كنف العرَّاب!

والذي بالفعل سيصبح بفضل هذه الرِّعاية الخاصة، قائداً عاماً لجيش البلاد الأسيرَّة! ولسنوات طويلة، أكثر مما كان متوقعاً، قبل أن تقضي على حياته قنبلة انفجرت بغتةً في

الطائرة التي تقله إلى الصعيد، ومن ثم تدك بعدها، شعوب البلاد الأسيرة عرش الحاكم الجنكويزي العام إلى الأبد!

لم يكن يخطر على بال العرَّاب أبداً، أن الحاكم العام، سيتولى قيادة الجيش أيضا بعد أن قتل قائده، محتفظا في الوقت نفسه بسلطاته كحاكم عام.

كما لم يخطر على باله أبداً، أنه سينقلب عليه هو نفسه ذات يوم ويذيقه الذُّل والهوان، إلى أن توفي كمداً! ترافقه مرارة لا حد لها، وآلاف اللعنات تودعه مثواه الأخير، غير مأسوفاً عليه!

الجموع الغفيرَّة التي شارّكت في تشييع جثمان العرَّاب إلى المقابر. كان بعضها، يريد أن يستوثق أن الرجل قُبر فعلًا، ولن يعود بعد الآن لممارسة هواياته القبيحة، في التلاعب بمشاعر النّاس ومصائرهم. كانت قد أربكت حرّكة السير والمرور في المدينة الزّاهية، بعد أن أغلق الجنكويز، الجسرين الرئيسيين على النهر!

تصدر الجموع أنصاره وتلاميذه الجَنكويز، الذين توزعوا بين حزب الحاكم العام الذي انقلب عليه، فانشق عن حزب الجنكويز الرئيسي، الذي ظل العراب يتزعمه، الى أن وافته المنية!

الأحزاب الجنكويزية المتوالية والمتعارضة على السواء، شاركت في التشييع! والمفارقة أن عدداً من حركات صانع الفخار المسلحة، أرسلت برقيات تعازي، ربما لذَّر الرَّماد في العيون، أو درءاً لشماتة، أو رَّغبة في الظهور بمظهر العقلاء المتسامحين مع العرَّاب، على كل ما ارتكب من جرائم في حق شعوبهم، التي حملوا لانتزاع حقوقها السلاح!

كان في مقدمة المعزِّين، عشية مواراة جثمانه الثرى، الحاكم العام الجنكويزي، الذي نعاه أيضاً على صفحته بالفيسبوك، مرفقاً ذلك بتغريدة على تويتر، مبللة بدموع تماسيح اليكترونية، فاقت خيال الخوارزميات الكمبيوترية للهكرز الهنود!

لكنه بناء على نُصح مقربِّين، سرعان ما غادر إلى قطر في طريقه إلى "استانبول" قُبيل التشييع، بقليل، وقبل أن يسترسل في أحزانه الزَّائفة على صانعه، الذي انقلب عليه!

جنكويز حزب العرَّاب انشغلوا بُعيد الدَّفن مباشرَّةً، بالإجابة على سؤال:

من سيخلف العرَّاب؟

خاصة أن المقبور، هو آخر أفراد سلالة المقدس سرَّه! ورغم كفاحه الطويل، لم يُرزق من صلبه بمن يخلفه، لذا سارعت الأمانة العامة لحزبه، إلى الانعقاد!

ووفقا للنظام الأساسي، اختارت فجر اليوم التالي للوفاة، أحد شائهي الوجوه من صنائع العرَّاب، لطالما لقبه أعدائه داخل حزب العرَّاب نفسه، بالشيخ "الضبع" كأمين عام مؤقت، لحزب العرَّاب المقبور، إلىٰ حين انعقاد مجلس شورَّى الحزب، الذي كان بعض أعضائه، قد نفاهم الحاكم الجنكويزي العام، في صفقات غامضة إلى إسرائيل ودول أخرى غربية، تربطه بمخابراتها، صلات سرِّية غير معلنة! لتستفد تلك الدول من معلوماتهم، عن حركات الارهابيين المتطرفة، التي أسسوها فيما مضى، أو تلك التي رعوها أو يديرون ملفاتها!

وهكذا أعلن الأمين العام الجديد، أن مجلس الشورى سينعقد، بمجرد وصول أعضائه من المنفىٰ!

ولم يمض على هذا التصريح سوى يومان، حتى وصل الحاج "خابور" أحد المنفيين من القيادات البارزة، بعد غياب دام عشرون عاماً، إثر انقلاب الحاكم العام على عرابه!

جموع الأهالي، كانت لا تزال تملؤها وساوس، بأن العرَّاب على قيد الحيَّاة، رغم أنهم شهدوا مواراته الثرى بأم أعينهم!

فهم لا يصدقون لشدَّة ما عاشوه من بؤس وأحزان، بسبب فكرته المدمرَّة عن بناء الدول!

أحد رؤساء الأحزاب الجنكوِيزية التاريخية، ورئيس وزراء آخر نظام جنكويزي، اختاره شعب الجنكويز، كان العراب قد دبر ضده الانقلاب، الذي أطاح به وجاء بالحاكم العام محله، قال متبجحا:

"حفاظا على إرث الآباء، استبدلنا قبضة رَّخوة، بقبضة محكمة!"

وفي الحقيقة رئيس الوزراء الجنكويزي السابق، الذي لم ينس هذه العبارة أبداً، كان يجاهد لاخفاء غبطته، فقال وفي داخله يعتمل حقد مرير على المقبور:

"إن البلاد فقدت مفكراً وعالماً، جمع بين الفكر والعمل"

وأشار إلى اتفاقه معه في مواقف عدة ضد الانقلابات، التي ظلت تهدد استقرار البلاد الأسيرَّة! ولم ينس أن يشير إلى خلافه معه، حول عدد من قضايا شعب البلاد الأسيرَّة..

فيما كانت هذه الأمور تجري، طالبت حركات صانع الفخار في البلاد الأسيرَّة، الجنكويز أن يتخذوا من رحيل العرَّاب، مناسبة للعودة إلى صوابهم ويكفوا عن الاستبداد واستعباد الأهالي المساكين. فانبرى محللين وصحفيين

وكتاب القوى الجنكويزية، الموالية للحاكم العام والمعارضة له، للتصدي لمطالب حركات صانع الفخار، وذهبو مذاهب عدَّة، في استعادة ماضي العرَّاب وحاضره، قُبيل وفاته، وتأثيره على حياة البلاد الأسيرَّة، منذ بلغ الحُلم وخلف المقدس سرّه الأب الرهيب!

و"شرَّقت" أفكار هؤلاء و"غرَّبت" بما أسالوا من مداد، كما عن لهم! مع إدراكهم التام، أن الرجل لم يكن وقومه وحزبه، سوى عبئاً ثقيلًا على كاهل هذه البلاد الحزينة! وأنه لا يستحق سوى اللعنات!

وفي الحقيقة أن موت العرَّاب، بقدر ما أطلق أحلام الطامحين في الحلول محله، من قادة أحزاب الجنكويز، إلا أن ما لا شك فيه، أن قداسته كان عبئاً كبيراً، انزاح عن كاهل الحاكم العام، الذي أدرك أنه سينجح في تعزيز قبضته في مقبل الأيام، بقوَّة النياشين التي تقلدها على جماجم الأهالي، ويكرِّس انفراد حزبه بالساطور، دوناً عن سائر أحزاب الجنكويز في البلاد الأسيرَّة التعيسة!

وبين كل هؤلاء وأولئك، كان ثمَّة تلاميذ وأنصار حقيقيين للعرَّاب يفتقدونه، ولا يفتأون من آن لآخر يقصدون بيته، يبكون على جدرانه، التي باتت أشبه، بـ أطلال معبد قديم، لطالما ذرفوا على حوائطه دموع التماسيح، رّهبة وخشية لله!

نعم، أنا المريود رجب المريود، آخر المنشقين من حزب العرَّاب. وفخور بـ انشقاقي. ستسألونني:

"هل اعتقلت وعذبت وقتلت الناس؟"

سأجيب:

"نعم.. فعلت ذلك في سبيل الله كما ظننت!"

"ما الأشياء التي فعلتها؟"

"بل ما الشئ الذي لم أفعله! فعلت كل شيء لإعلاء كلمة الله، أو هكذا ظننت: أن الأمر يتعلق باعلاء كلمة الله!"

"لماذا تبدل ظنك؟"

"اكتشفت أنني إنما اعتقد في كلام العرَّاب، أفكار العراب.. اكتشفت أن كل ما كنت أفعله؛ لا علاقة له إلا بإعلاء كلمة العراب! إكتشفت أن كل ما فعلته من وحي أكذوبة محض!"

"هل أضلك العراب، كما أضل المنتظر أهالي البلاد الأسيرَّة؟"

"لا؛ لم يُضللني، كغيري ضللت نفسي، أنا المسؤل الوحيد عن أفعالي، ولكن هل استحق القصاص وحدي؟"

"لا.."

”هل تعتقدون أنكم أفضل مني؟“

وضحك وهو يتألم من التعذيب، ثم أضاف بصوت واهن:

”إذاً صدقوني، إن كان حزب العرَّاب هو كهنة معبد آمون، فأنتم لا تختلفون عن أركماني كثيراً“

”ماذا تعني؟“

”أعني أن قدر هذه البلاد أن يكون زمنها دائرياً، يبدأ لينتهي إلى حيث بدأ“

”لكننا لا نبتدع ديناً جديداً“

ابتسم ساخراً:

”ستقولون لي وسأقول لكم.. أنا المنشق المريود، آخر أحفاد النبيل ”أبوركبة“ المتحدِّر من "كليوّة" العظيمة البائدة، إلى هذه البلدة الكئيبة السبخة، التي أرهقت النائحات!“

❀❀❀

تنهد ود دبرق:

ما قاد لهذه الوقائع والأحداث، إن طائفة صانع الفخار الأم، حسمت خيارها.. اختارت الحرب، لأن الحرب دخلت بيوت الناس، على طول البلاد وعرضها لا تخلو أسرة من قتيل..

ملايين المفقودين والقتلى والمنفيين والمعتقلين والضحايا، الذين حصد رصاص الجنكويز أرواحهم. لم تكن الحرب الخيار الأفضل، لكنها كانت أفضل الخيارات السيئة!

لذا قرر صانعي الفخار الحرب، لأجل وضع حد ونهاية لهذه المأساة، التي لم تلوح يوماً في أفق البلاد الأسيرَّة، نهاية لها!

❁❁❁

انكمش المريود على ركنٍ قصيٍّ من الزنزَّانة، وهو يستعيد في ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك والجغرافيا والنَّاس، وتتداخل الأزّمنة!

لكأنه يسقط في ثقب زّمني منه وإليه.. يرى وجه "تور الجر" كالحاً متجهماً!.. يرى أمراء "أم كواكية" يتوسطهم الترح فلا يستطيع تمييز الجنكويز عن الجنكويز، ويرى البلاد الأسيرّة، بسنواتها القاسية العجاف، المتجددة في كل عصر، فيتنهد بحسرَّة.

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزياً:

"لست الوحيد.. جرثومة الضلال والإستبداد ورثناها من أسلافنا في التاريخ الغابر، والتاريخ الذي نعيشه الآن!"

ويصمت لبرهة ثم يتابع:

"كيف قرأنا علاقة كهنة أرتكني بالمقدس سره، وعلاقة أبوركبة بابي كردوس بتور الجر بالترح.. كيف قرأنا العلاقات التي ربطت بين هؤلاء وأولئك ممن صاغوا وجودنا الحي؟!.. جميعهم يمثلون عقلًا واحداً، لهذه البلاد الحزينة..

أنه تحالف تاريخي رهيب؛ هذا الذي كان قدر صانع الفخار مواجهته، على مر العصور والأزمنة.. كيف ننظر إليه؟"

لذا عندما أتساءل الآن، إنما تنحدر أسئلتي من منبع جراحات قديمة، لم تستطع مئات السنوات التي عبرت على أرماث اجدادي، أن تطمرها بالنسيان فتندمل!

هل كنت أنا المريود الوحيد الذي مر أسلافه من هنا؟ فهناك في جهة السافل ودار صباح، مر العابرون، فتأسست مملكة زمردة على أنقاض مصاهرة بني دهب لرؤساء "قبائل الهبباي" الشيئ نفسه الذي قضى على كليوة، لتتأسس على أنقاضها فاز وقرضاية السمراء من العدّم، بتحالف "خاتم الدولة" مع النبلاء والأمراء "في قرضاية الواعدة" أولئك الذين لفظتهم كليوة بسبب تكالبهم على الملك، للحصول على قلب امرأة لا تختلف كثيراً عن ملايين النساء؟!

تحالفوا مع الغزاة، رّغبة في الانتقام من المدينة، التي حرمتهم الزواج من حبيبتهم، دون أن يعلموا أنهم (يكونون) الجنين، الذي ستنجبه (أم كواكية)، بعد مئات قليلة من السنوات!

والشيء نفسه حدث في دار الريح، إذ نهضت مملكتها في تحالف الجنكويز، القادمين عبر الصحراء الكبرى مع شعب الوادي، وهذا اللقاء الفريد بين دار الريح ودار صباح.. الغرب والشرق.. لحكم كامل تراب البلاد الأسيرة في فترة أم كواكية وما تلاها من عهود!

كيف ننظر لكل هذه التحالفات الثنائية، في منعطفات مصيرية، عبر خلالها تاريخ البلاد الأسيرّة، فوسمته بما نراه الآن؟!

باختصار يا سادتي أنا كغيري.. مثل كثيرون عبر تاريخنا القديم والحديث، كنت مجرد أداة.. كنت أحد الأدوات التي تنفذ أفكار العراب، الصادرة منه هو كبشري، والمستلهمة لتاريخ من الاستبداد.

فالعراب كأي بشري طامح في السلطة والهيمنة، يرغب أن يكون مختلفاً عن الآخرين. كنت تلميذه النجيب، الذي يعيش أشواقه وتهاويمه وأحلامه ويبشر ببشرياته وطموحاته البشرية! كانها أوامر إلهية.. هذا ما كنته أنا المنشق المريود جبر الدار المريود!..

صمت المريود، وكل الوجوه تتغضن ملامحها وتنفرد في السكون الذي خيم على الزنزانة.. أشاح جادين وجهه عن المريود، وتنهد تنهيدة عميقة، قاطعاً الصمت، الذي هيمن على فضاء الزنزانة بكلكله، قبل أن يقول:

"هكذا بدأت الحكاية، من منتصف مسافة التاريخ، في تلك الظهيرة البعيدة الحارقة، من ظهيرات يوم من أيام قبل الميلاد، حيث اجتمع كهنة معبد آمون، على جبل البركل، يتداولون في أمر الملك أركاماني "ارجمنيس" الذي بات لا يأبه لسلطانهم عليه، ولا يرجع لهم في القرارات المهمة،

ولا ينفذ ما يأمرونه به، هم كهنة آمون العظيم، قال كبير الكهنة:

"لطالما تخلص كهنة آمون من ملوك أعظم شأناً من اركماني، فما بالنا نحن نتردد الآن"

فرد كاهن آخر:

"اركماني ليس كالملوك الآخرين، لم يمر على "كوش" العظيمة مخادعاً متمرداً مستبداً مثقفاً مثله"

قال أحد الكهنة الحكماء:

"كان خطأً كبيراً أن تركناه يرى العالم؛ فيسافر لطلب العلم في أصقاع الدنيا.. لابد أن ذلك غيره كثيراً"

"إذن.."

قاطعه أحدهم:

"إذن ليس أمامنا سوى الحيلة"

فانتفض كبير الكهنة في مجلسه على دكة الصخر؛ وقال بغضب:

"نحن الآلهة، كهنة الإله العظيم آمون، الذي يخشاه كل من في الأرض، يجب أن يسمعنا، اكتبوا له أمرنا"

نظر الكهنة في وجوه بعضهم البعض، ولم يستطع أحدهم أن يتفوه بحرف، بعد أن أمر كبيرهم بما أمر. ترددوا لبرهة، قبل أن يشرع أحدهم في الكتابة على ورقة بردي طازجة، رسالة إلى اركماني يأمرونه فيها بالانتحار كما جرت العادة، تنفيذاً لإرادة الإله العظيم آمون!

وعندما أدخل الحاجب الرسالة إلى أركماني، وقرأها الأخير، شعر أنهم أعطوه فرصة التعجيل بموتهم، فلطالما كره ادعائهم احتكار الدين، وهم في الحقيقة يستغلونه لاحتكار الدنيا، ولذلك بدلًا عن الانتحار، أصدر في الحال مرسوماً، يجرد الكهنة من سلطاتهم الإلهية، وإلغاء الاغتيال الطقوسي للملك، ومن ثم زحف بجنوده على معبد آمون في جبل البركل، حيث لا زالوا مجتمعين، وقام بقتلهم جميعاً! وهدم المعبد على جثثهم!

ومن ثم أمر بتشييد هرمه في مروي (البجراوية) بدلا عن نبتة (نوري). منتقلًا بمركز الدين والثقافة والحضارة من موقعهما القديم!

بعد أن اخترع كهنته الجدد، الذين انتقاهم بعناية "الكتابة المروية" وابتدع الإله دماس الفيل إله الشمس والخبز والحرية! الذي يضاهي آمون قوة، وانكفأ على "كوش" يبني ويطور ويجدد في كل شئ!

❁❁❁

بعد جدال طويل وأخذ ورد نهض أبو ركبة؛ ونادى المنادي في قادة العسكر! وفيما كانت حدة الصراع بين فاز ودار الريح تشتعل، والنزاع داخل الأسرة الفازية الحاكمة تتسع هوته، نشط أعوان أبو ركبة يهيئون الأوضاع لعزل الملك، مستعينين بنبلاء فاز الساخطين!

وهكذا أخيراً اجتمعت سائر العناصر المتضررة الأخرى حول "دعوة البعاعيت" بقيادة النبيل الشاب أبو ركبة، الذي التف حوله "أتباع صانع الفخار" الذين هم عناصر شتى من أجيال جديدة من "نبلاء كليوة البائدة" و"أمراء الحرب" و"الجنود" من "العبيد" و"التجار" و"الفقرا".. وكان قائدهم "أبو ركبة" النبيل الشاب من "فاز"، قد شق طريقه إلى قمة القيادة العسكرية في "دار الريح" "ودار صباح" بجلده وحنكته وعزمه.

الالتفاف الذي وجدته "حركة أبو ركبة التصحيحية" ما كان ليتم إلا لفساد الحاكم الجنكويزي الفازي ابو كردوس، وانفراده بالسلطة وقتله بقية "الأسرة المالكة من نسل السلطان السابق".

كما أن ابو كردوس غير وبدل في الأنظمة، التي تحكم وتنظم "السلطنة" وتجرأ على أفعال ذميمة، أهونها القتل والنهب، كما قتل أحد صانعي الفخار، ممن كانوا أهالي فاز

يكنون له الحب والتقدير! وبالجملة قد ظهرت منه أمور شنيعة، نفرّت منه قلوب رعيته!

لذا ظهر أبو ركبة، الذي كان قد شكل مركزاً محورياً بعد انتصاراته المجيدة، التي تغنت بها الحكامات، في حروبه في دار الريح والصعيد. بما أظهره في المعارك من قدرات عسكرية مبدعة! كما أنه كان صاحب شجاعة خطابية، وقدرة فذة على المواجهة رغم أنه (كان تمتاماً)!

قصد "أبو ركبة" فاز بعد "اتفاقه" مع "أعيان البعاعيت" على عزل "ابوكردوس" ومعه الجيش و"العبيد" ومهمشين أطراف البلاد الأسيرّة و"أمراء الدولة" ونزل "بقوز التنباك" حيث أخذ المواثيق والعهود، وأرسل مناوراً، إلى "مرجان" ابن "أبوكردوس" يلوح له "بأن يحل محل أبيه!"

وعندما جاءه الرد ايجاباً، تحرك بجيشه قاصداً "فاز" التي ارسل وهو على أبوابها "للسلطان ابوكردوس" الأمان، فخرج الأخير إلى "قمربوبا" في ذلة ومسكنة!

حركة أبو ركبة التصحيحية؛ كانت أول انقلاب أبيض في تاريخ البلاد الأسيرّة! امسك فيها بمقاليد الأمور عملياً، بينما ولى اسمياً ابن السلطان المخلوع قبل أن يقتله فيما بعد، ليعين جراب الفيل شقيق السلطان المخلوع محله!

سعى أبو ركبة لإزالة المظالم، وعدل في الرعية وأحسن إلى أتباع صانع الفخار، وهكذا استمرت سلطنة البعاعيت على انقاض مملكة فاز، إلى أن سقطت تحت سنابك خيل الغُزاة الأتراش.

صمت جادين، فحك المريود رأسه وهو يقول:

"لكن لم تتوقف القصة هاهنا، على الأقل بالنسبة لي أنا المريود، الذي عاش حيّاة البلاد الأسيرّة في تاريخها، ورأى الجنكويز الذين جيشهم العراب، وهم يموتون تحت المجنزرات في الصعيد ودار الريح، لينزع عنهم العراب في خاتمة المطاف صفة الشهداء، ويصفهم بـ "الفطايس!"..

هؤلاء الفدائيين كانوا رفاقي، هل كانت أرواحهم رخيصة، لا.. لقد آمنوا بأفكار العراب، كما آمن الفقراء والمستعبدين بصانع الفخار! فلم تهمهم الحياة.. انتحروا في سبيل ما آمنوا به، يمنون أنفسهم بحوريات لا مثيل لجمالهن، في عالم آخر غير هذا العالم!!

لكن حقاً هل كان مشروع العراب هراء؟!.. هل كان منبتاً، أم حلقة متصلة بحلقات سلفت؟

❁❁❁

البلدة القديمّة، على عهد النظام الذي أسسه المقدس سرّه الأول.. هذا النظام الذي تعاقب عليه حكام عامين، من أسرّة المقدس سرّه المالكة، عهداً أثر عهد، ظلت نموذجاً مصغراً لكون البلاد الأسيرّة، فقد كانت مركزاً للمدينة الزاهية، وللبلدات والقرى والفرقان والحلالات حولها، التي ظلت بمثابة هوامش، تعكس عليها البلدة القديمة أزماتها.

ثمة تفاعل غريب، خفي بين البلدة القديمة وهوامشها، إذ يتجاور الثراء والفقر، رفعة المكانة والضعة، المعرفة والجهل.

لذا أصبحت البلدة القديمّة، بمثابة مختبر غريب، يمكن خلاله دراسة كل شيء عن البلاد الأسيرّة، ومفارقاتها وعوالمها البائسة!

فانخفاض مستوى حيّاة أهالي البلدة القديمّة، وانخفاض مستوى أحلامهم، هو المستوى المنخفض نفسه، في كل جزء من البلاد الأسيرّة. ليس هذا فحسب، بل فقدان الشعور بالمسؤولية، والرّغبة في إحداث فرق، تجده في وجوه الأهالي، بطول البلاد وعرضها.

درجة مروعة من البؤس واليأس، فكل النّاس تركيزهم انحصر في نقطة واحدة: اللهث خلف لقمة العيش، التي باتت عزيزة وبعيدة المنال!

فرغم الخيرات المهولة، التي حُظيت بها البلاد الأسيرّة، إلا أن أهلها ظلوا يعيشون ضنكاً مفزعاً! أدى لتفسخ مخيف، وتفكك للروابط التي تربط النّاس ببعضهم، بدءً بالأسرة، مروراً بالمجتمع الكبير، وصولًا للعلاقة بالبلاد الأسيرّة كوطن!

فأول ما تلاحظه العين بنظرة عابرة: ضعف الانتماء! فقد فقد الأهالي ثقتهم في النظام والدولة؛ منذ أمد سحيق، بسبب إرغامهم على أداء واجبات، لا تقابلها حقوق يستحقونها!

وربما هذا هو الشئ الوحيد، الذي نجح فيه النظام، الذي أرسى قواعده المقدس سرّه الأول: إخماد روح الانتماء لهذه البلاد السمراء الجميلة، وقارتها السوداء النبيلة، بكل السبل!

❁❁❁

كانت مليشيات الجنكويز، قد استهدفت الأهالي بايعاز من الحاكم العام، الذي اتهم طائفة صانع الفخار في دار الريح، بدعم ثوار الطائفة المسلحين في الصعيد، فبدأ الجنكويز عملياتهم بسرقة المواشي، وخطف الفتيات، للتمتع بهن كسبايا أو كخدم في المنازل، أو في أعمال الزراعة، أو كرعاة دون أجر، وهو نوع من الاسترقاق لم تشهده البلاد الأسيرّة حتى في أشد عصورها المظلمة حلكة!

❁❁❁

فيما بروف محمود غارقاً في مقعده الوثير، خرج جادين عن صمته وأخذ يقرأ التقرير بصوت مسموع:

وفي إفادات ناجية، تمكنت من الهرب من المدينة المحترقة، أنها قطعت أكثر من أربعين كيلو متراً، لتصل إلى دولة الجوار، على رجليها، وأكدت أن هناك إعدامات سريعة نفذها الجنكويز، عندما اقتحموا المدينة صباحاً، وكسروا المتاجر وأخذوا الأموال والسكر، وجميع البضائع.

كما قتلوا كل من رأوه، ثم اقتحموا بعد ذلك على الأهالي بيوتهم:

"إنهم يأتون إلى المنازل، بحثاً عن الرجال والصبية لقتلهم. لقد قتلوا شقيقي، صاحب متجر عمره ثمانية عشر سنة في السوق. لقد قطعوا أشجار الفواكه في مزرعتنا لتغذية جمالهم"

وأفادت امرأة أخرى كانت قد رأت الجنكويز يداهمون قريتها:

"نهبوها، وأحرقوها، بينما كان الرجال في الخارج.. زوج إبنتي كان نائماً في المنزل. فايقظوه وضربوه ضرباً شديداً. بكعوب السلاح، والعصي حتى فارق الحياة"..

فيما قالت أخرى:

"وصل الجنكويز، فأمروني بمغادرة المكان. جلدوا النساء والأطفال، وقتلوا طفلة صغيرة عمرها سنتان، طعنا بالسكين على ظهرها"

وشاهدت امرأة ابنها يسحب من منزله:

"لقد قيدوا قدميه ويديه، ثم ذبحوه على مرأى من النّاس. كانوا يرتدون الزي العسكري الرّسمي، ويحملون الأسلحة، و يمتطون الخيل والجمال. كان ابني أعزلًا عندما قتلوه، وكنت ذاهبة إلى الصلاة عندما أصابتني شظيتان، إحداهما في كتفي اليسرى. والأخرى في بطني، فحملني أخي إلى المستشفى في المدينة. أعرف أُناسا أُعدموا، مثل كرشوم كوكو.. عندما كنت في المستشفى جاء الجنكويز بحثاً عن الرجال الذين لم يموتوا ليلحقونهم بالذين قتلوهم"..

كان الجنكويز يهتفون وهم يرددون:

"انتم معارضون للحاكم العام، والمقدس سرّه. سوف نسحقكم. أنتم عبيدنا.. سوف تبقى دار الريح كلها بأيدينا. نحن الجنكويز! الحاكم العام إلى جانبنا، وطائراته إلى جانبنا. تمدنا بالذخائر والمؤن، وأنتم ليس لديكم شيء!"..

ويمضي التقرير في وصف الهجوم الأول على تلك المنطقة:

"حاصر الجنكويز القرية وأطلقوا النيران، على المواطنين العزل، فقتلوا كل من وقع في أيديهم، بعضهم قُتل داخل المنازل، فيما هرب الباقون. أما في الهجوم الثاني، كانت القرية خالية من المواطنين، فقام الجنكويز بسرقة الممتلكات وحرق المنازل. وتدمير ما بقى منها. وفي نفس توقيت هذا الهجوم، تعرضت قرى أخرى للهجوم أيضا**!**"

وأدلى أحد الناجين بشهادته قائلًا:

"كان ذلك في يوم السوق.. عدد الجنكويز كان كبيراً جداً، ومن لهجات بعضهم، كان واضحاً أنهم من جنكويز الجوار، وكانوا مزودين بعربات كثيرة، فاجأونا بالهجوم عند الفجر. وقتلوا كل من وجدوه بالأسلحة المحمولة على العربات"..

وتعرضت قرية أخرى، في التوقيت نفسه للهجوم من قبل جنكويز آخرين، أخبر أحد سكانها وفد المنظمة قائلًا:

"الجنكويز أحرقوا منازلنا، وسرقوا مواشينا وممتلكاتنا، سرقة المواشي تحدث منذ عهد المقدس سرّه الأول، ولكن حرق القرى أمر جديد**!**

لقد جاءوا على ظهور الخيول والجمال، مزودين بالكثير من الأسلحة المدمرّة، هذا غير الألغام التي زرعوها، في أماكن متفرقة، لا يعلمها أحد سواهم، فقد مات بها أو بترت أطرافهم كثيرون، أننا نعرفهم، فبعضهم من نفس المنطقة، ولد أسلافهم هنا وعاشوا بيننا، ونعرفهم أبا عن جد.. واحداً واحداً، كنا أكثر من أخوة، ولطالما تزوجوا منا وتزوجنا منهم، لا ندري ما الذي حدث لهم، فأصبحوا يقتلوننا، بعضهم لا نعرفه، فقد جاءوا من دول أخرى، حتى لهجتهم نفسها مختلفة، لكنها لغة الجنكويز ذاتها!

لقد هاجموا الرجال العزل واغتصبوا النساء. وقتلوا الأطفال،.. نحن مرعوبين!"

وأضاف آخر:

"كذلك كانوا يركزون على قتل الشباب. لكن ذلك لم يمنعهم من قتل المسنين والعجزة، الذين لا تسعفهم عاهاتهم وصحتهم على الهرب!"

المقدس سرّه وجنكويزه لطالما رغبوا في فصل الصعيد ودار الريح، كانوا يشعرون بهذه الأجزاء من البلاد الاسيرّة عبئا على هويتهم المقدسة وعرقهم النقي! فشيدوا الأسوار العازلة..

وقتها، لم يكونوا يعلمون، أن في باطن أرض هذه الأجزاء، من البلاد الاسيرّة. تكمن ثروات ومعادن لا حصر لها!

وعندما علموا، قرروا إبقاء هذه الأجزاء جزءً من البلاد الاسيرّة لكن كيف وقد ظلوا يشيدون الجدران العازلة طوال تاريخهم، كيف يقنعون هذه الشعوب، هؤلاء الأهالي الطيبين، الذين عبروا انهار المذابح إلى شواطئ العبودية والمجاعات، وحروب الموارد في أوطانهم المنهارّة، ومع ذلك يتحملون عبء النزوح عبر الحدود، من الجوار نتيجة الجفاف والتصحر.

هذا الضغط السكاني المروع لنازحين من الخارج وجنكويز الداخل، على هذه الموارد الشحيحة، ولد مآسي لا يمكن تصورها!.. كيف بإمكانهم إقناع هؤلاء، للتوحد معهم مرة أخرى.. الم يستمعوا إلى غنائهم الحزين الذي يحمل شكاوى آلاف السنوات، الم يسمعوا شعرهم وهو يكشف عن أثرٍ لا ينمحي للمأساة؟

هؤلاء النّاس.. هؤلاء الناس لقرون طويلة، تشبثوا بهذه الأرض المنبسطة دون أسوار، لم تعد هي الأرض ذاتها، عندما شيدت الأسوار متطاولة، تبلغ عنان السماء، لم يقرروا المغادرة.. لم يقرروا الانفصال.. كان الجلادون الجنكويز، هم الذين يقررون كل شئ عبر العصور، ومع ذلك ظلت حياتهم رغم قسوتها تمضي، متشبثة بالحلم بغدٍ

أفضل، إلى أن بدأ القتل المنظم باسم الدين والوطن والهوية! فكيف ينتهي هذا.. كيف؟

❁❁❁

في رأس جادين جانو، تومض وتنطفئ على نحوٍ متقطع كل الحوارات، التي دارت بينه وبين زملائه المعتقلين، في هذه الزنزانة الضيقة، المنفية في التاريخ والجغرافيا..

تمر بخاطره حركة الناس والشارع.. هؤلاء النّاس الذين هيمن الشك والرّيبة علي نفوسهم، حتى لم يعودوا مبالين بشئ، كانوا ينتظرون العيد بفارق الصبر، ليزوروا الأحبة، ويعانقونهم وهم مملؤين بالشوق والحنين، ويصافحون الغاشي والماشي، ويبتسمون بوجه الأعداء ولسان حالهم يقول:

"الدنيا عيد"..

كان "كلامهم أنغام، ولغوهم بسام، وحين يتقابلون ينطقون بالسلام".. حتى أغنياتهم كلها كانت شوقاً وريد، يملأ سرورهم القلب منه وإليه!..

من الغباء أن نتساءل عما حدث لهم، فالحاكم العام منذ بيانه الأول، بعد نجاح انقلابه العسكري على المقدس سرّه أكد

بوقاحة، أن من أراد إسقاطه، فليحمل السلاح، وكشف عن نيته في البقاء على صدور النّاس، كاتماً أنفاسهم، إلى أن ينمحي من ذاكرة الأهالي، كل أثر لتاريخهم الغابر المجيد.

محو اسم صانع الفخار والخزين وأركماني، وبعانخي، الكنداكة، والشايب جقندي حافظ تاريخ البلاد الأسيرّة.. محوهم من مصلحة الآثار ومن دار الوثائق، ومن المقررات المدرسية، وسحق ما تبقى من آثار لمعبد البركل، وكل المعابد القديمّة في البلاد الاسيرّة!

ومع ذلك، هذا السحق المنظم، انعكس كنصل صدئ، ضد نظامه الشائه، فظلت التظاهرات تخرج، والجماهير تهتف في شعاراتها، بكل الأسماء التي حاول محوها من ذاكرّة الناس ووجدانهم.

بعثوا تاريخهم المجيد، من غياهب الاستبداد والتواطؤ والتآمر والنسيان، واخذت كل قطاعات الشعب تعمل سراً، على كنس الجنكويز ونظام المقدس سرّه، إلى مزبلة التاريخ!..

النحاتين والرّسامين، الذين هجروا فنهم ملأوا الشوارع بمنحوتات ولوحات رموز التاريخ الغابر، السياسيين والمثقفين والمقاتلين، وزعوا مناشيرهم في كل مكان، حتى قصر الحاكم العام نفسه، كانت كل الشواهد تقول، أن شعب البلاد الأسيرة ينتفض، فالأهالي الذين أخذوا يطلقون. على

تظاهراتهم أسماء رموز التاريخ المجيد، استعادت أرواحهم ذواتها، من الأسر. فانطلقوا يتظاهرون في جمعة الكنداكة، وفي تظاهرة خميس اركماني الغاضب، اثنين صانع الفخار الولي الصالح، ثلاثاء الشايب جقندي حافظ التاريخ، أربعاء النبيل أبو ركبة..

وهكذا شحذت ذاكرّة الأهالي ذاتها، تحيي وجدانها السليب، وتشيع مناخات من التوتر، تعم البلاد الأسيرّة، فتمتلئ الشوارع والطرقات بمدرعات الجيش الجنكويزي وحزب المقدس سرّه!

في الزنزانة، التي لا يعرف موقعها بالضبط من جغرافيا البلدة القديمة، بعد أن رحلوه واثنين من زملائه، إلى وجهة غير معلومة، إلى هنا هذا المكان..

يتكيء جادين برأسه على جدار الزنزانة، وصوت تنفس المعتقلين وغطيطهم، لا يفتأ يشوش أفكاره المنهكة، التي يحاول استجماعها جاهداً. يعود بذاكرته للوراء، إلى تلك اللحظة التي داهم فيها الجنكويز مكتبه، في تلك الصبيحة الغائمة.

كان قبل أن يتهالك جسده الفارع، الذي لا زال يحمل آثار سهرَّة ليلة البارحة مع هيلدا، على المقعد المتحرك خلف مكتبه، قد سمع صوت جلبة خارج المكتب. وقبل أن ينهض

ليستوضحها، داهم مكتبه خمسة من الجنكويز المسلحين بأسلحة أوتوماتيكية قصيرّة، انتهره أحدهم بحدة:

"انت جادين جانو؟"

اتسعت عيناه المتسائلتين، فشحذ قدرته المدهشة، في الحفاظ على هدوء أعصابه، في الظروف العصيبة، ورد بهدوء:

"نعم انا جادين"

وبعد أن بعثروا كل شيء في مكتبه ومكتب بروف محمود ومكاتب زملاءه، ونقبوا في كل بوصة في المكان، أشار الرجل بمقدمة سلاحه، إلى الباب في حزم:

"تعال معنا"

لطالما كان يتحسب لهذه اللحظة، كما ظل شعب البلاد الأسيرّة يتحسب، ويراقب ما يجري!

كان يراقب كل شيء.. لذا عندما أعلنت كنيسة البلدة القديمة، أنها تراجعت عن إحراق تلك الجمجمة، التي وجدها القسيس غبوش كوة تحت تراب شجرّة الجُهنمية الحمراء، وقررت إهدائها لمعهد جار النبي لدراستها، متخذةً بذلك قراراً ثورياً، نال استحسان المعهد، في الحقيقة

لم يكن القس غبوش يأبه كثيراً لعقيدة الكنيسة في عدم نبش قبور الموتى!

لكن من الجانب الآخر، أخذ مسيحيين البلدة القديمة المتطرفين، يتساءلون عن مدى تجذر الإيمان والورع ومحبة سيدنا يسوع، في وجدان هؤلاء القساوسة العلمانيين الكفرّة! منذها قاطعوا صلاة يوم الأحد في الكنيسة، التي قل زوارها أساسا منذ زمان بعيد!

ولم يصدق علماء المعهد أنفسهم، والذين كانت تدور حولهم شبهات كثيرّة، بأنهم أخيراً حصلوا على الجمجمة، هذه الهدية الغالية التي منحتها لهم الكنيسة، بعد أن تمكن القس غبوش كوة، من إقناع رهبانها وقسستها، بإهدائها للمعهد!

وما أن حصل عليها المعهد، حتى بدأت المراسلات بينه ومراكز البحوث الآثارية في العالم الواسع، ومن ثم حملتها هيلدا بعناية وطارت بها إلى ألمانيا!

زفر جادين جانو زفرّة حارّة، وانتفض على صوت باب الزنزانة يفتح بشدة، مفسحاً لصوت غليظ، أجش:

"جادين جانو"

"نعم"

"تعال معنا"

تحامل جادين على جسده، ونهض متكئاً على الجدار، جرجر رجليه، اللذان شعر بهما ثقيلتين، لا تقويان على حمله، من أثر الجلوس على الأرض مقعياً!

عند مدخل الباب، دفعه أحد الجنكويز إلى الخارج بعنف، فوقع على الأرض وهو يتأوه من الألم.. جذبه الجنكويزي بقسوة وهو يصرخ فيه:

"انهض يا ابن الكلب.. أنت لم ترى شيئاً بعد"

كانت يده الثقيلة؛ قد أحكمت قبضتها على ياقة قميصه، دفعه أمامه وهو يلطمه، ويركله من آن لآخر.

شعر جادين بذل ومهانة لا حدود لهما، كان يتأوه وهو يسمع صرخات غاية في الألم والعذاب، تنبعث من الزنازين حوله. وكانا كلما تقدما ومرا بأحد الجنكويز يضربه بقبضة يده أو يركله..

لا أحد هنا يسأل المعتقل عن جريمته، فهو مستباح للجميع، الكل يضربه، يشتمه، يبصق على وجهه! لا يستطيع حماية أي جزء من جسده المستباح..

كانوا يجدون لذّة في محاولة كسر روحه!..

متعتهم.. غاية متعتهم انتهاك كرامته و إذلاله، شعر بكم هو منهك و منتهك وحزين! إلى حد يطغى على الاحساس بالألم!.. وكانوا يردفون ضربهم له بـ البذاءات:

"عميل.. صهيوني.. متمرد"..

"سنريك جزاء الخيانة"..

"ستتمنى لو لم تولد!"..

قاده الجنكويزي عبر الفناء، خلال سلسلة معقدة من الممرّات والأفنية الصغيرّة، ذات الاضاءات الشاحبة، و كانت رّائحة النّهر من آن لآخر، تنبثق في هذه الأفنية خابية، لا تكاد الأنف تتحسسها!

أفضى بهما أحد الممرّات إلى باب موارب، أوقفه الجنكويزي لبرهة وتقدم هو إلى الداخل، ثم عاد يجذبه.

كان أنفه وفمه ينزفان، وهو يخطو خلال الباب، وكان ثمة رجل خمسيني، يجلس خلف مكتب أنيق، رفع رأسه عن ملف أمامه وسأل الجنكويزي:

"فتشه مرة أخرى جيداً"..

أمره الجنكويزي بخلع قميصه وبنطاله، وأخذ يفتش ثيابه الداخلية، بدى له ما يحدث عبثياً، ولم يخطر على باله أبداً.. أنهى الجنكويزي تفتيشه العبثي وهو يقول:

"انه نظيف سيادتك"..

"ارتدي ثيابك"..

قالها دون أن يرفع عينيه عن الملف، وظل الجنكويزي واقفاً.. خيم صمت عميق لفترة ليست قصيرّة، لا يسمع فيها سوى صوت تقليب صفحات ورق الملف، ركز جادين عليه، خمن أنه لا يقرأ.. فقط يقلب الأوراق أمامه، فكر في الغاية من ذلك فلم يفهم شيئاً!

رفع الضابط الجنكويزي عينيه عن الملف أخيرا، ووجه حديثه للعسكري الجنكويزي:

"يمكنك الانتظار"..

ثم التفت إلى جادين بود، وهو يركز بصره على خيط من الدّم ينحدر من أنف جادين:

"تعال، تفضل، أجلس هنا.. يبدو أن هؤلاء الأغبياء أساءوا معاملتك، رغم أنني حذرتهم أن لا يمسوك، نحن نقدر العلم والعلماء، لن ادعهم يفلتون، سآخذ لك حقك"..

تقدم جادين وجلس على الكرسي بمواجهة الضابط الجنكويزي، يفصل بينهما المكتب الأنيق، وابتسم في قرارة نفسه ساخراً:

”هل يظنني طفل! ينخدع بكلمة!“

قطع خاطره صوت الضابط الجنكويزي: "اسمك وسنك.. وعنوانك.."...

"جادين.. جادين جانو.. ستة وخمسين سنة، البلدة القديمة.."...

على حين غرّة تقدم الجنكويزي الواقف على الباب، وهوى على صدغه بصفعة قوّية، جعلت رأسه يدور، فاستحال كل شيء حوله، إلى ضبابي ملون غائم!

"البلدة القديمّة يا كلب؟ البلدة القديمّة؟ اتظننا لا نعرف عناوينك الأخرى؟"

كان وجه جادين متورماً، دامياً، وذهنه مشوشاً يكاد لا يعي ما حوله.. قال الضابط كلاماً كثيراً، وتفوه العسكري بشتائم أكثر، وصفعاته تتوالى على وجهه وصدغه، فترتج أذنه ويشعر بطنين طبلتها، وكل شيء حوله يبدو لعينيه، مثل نيجاتيف لفيلم ردئ التصوير، كما بدت لمسامعه

الأصوات، أشبه بأصداء باهتة، لا تكاد الأذن تمسك بتلافيفها!

لم يكن قادراً على أن يسمع أسئلتهما، أو ما كانا يقولان! بجهد يفوق طاقة احتماله، التقط سؤال الضابط الجنكويزي:

"ما هي طبيعة عملك في المعهد؟"

"انا باحث.. باحث في الآثار والتاريخ"

قال الضابط في غضب:

"عن أي شيء تبحث؟ هل تقصد أننا مزيفين للتاريخ، وأننا لا ننتمي لهذه البلاد، وأنك تريد إثبات ذلك؟"

"لا؛ لا أنا لم أقل ذلك.. أنا مجرد موظف في المعهد، موظف كباحث هذه مجرد وظيفة"

همهم الضابط الجنكويزي وقال بصوت حاول أن يجعله لطيفا:

"أرى أنك شخص متعاون، أليس كذلك؟ وستخبرنا عن الجهات التي تمول المعهد، وعلاقة المعهد بالنزاعات في البلاد "الأسيرّة"..

"لا أدري عما تتحدث، المعهد منظمة مدنية تطوعية، تمول نفسها من عائد مشاريعها، اضافة إلى أنها تُكلف بأبحاث أو تقترح مشاريع بحثية، ميزانيتها بتمويل من الجهات البحثية المعنية بهذه البحوث، وبعض هذه الجهات حكومية، المعهد قانوني ويعمل تحت سقف القانون، ولا علاقة له بالنزاعات والأزمات"..

"نحن نعلم عن جهاتنا الحكومية، أنا أسالك عن المانحين الأجانب: من هم وما هي أهدافهم.. وكيف تفسر وجود تقرير كالذي وجدناه على مكتبك: نظام يقتل شعبه، نحن نقتل الشعب؟"

"كما قلت لك أنا مجرد موظف، لا أعلم شيئاً عن الأمور الادارية، وكل ما أعلمه ذكرته لك.. هذه هي حدود معرفتي كموظف.. أما التقرير فهو مبذول في الشبكة العنكبوتية، ليس سراً، واهتمامي به جاء من اهتمامي العام كأي مواطن بما يدور في وطنه، بشكل عام"

"أنت كذاب.. يبدو أنك ستتعبنا معك"

ومع كلمة كذاب مرة أخرى تقدم العسكري الجنكويزي، وهوى بصفعة مدوية على وجه جادين، وهو يصرخ في وجهه:

"عميل، ماسوني، جاسوس.. صهيوني"

بصق جادين أحد اسنانه المهشمة، وصوت الضابط، يأتي كصدى مشوّه، كأنه يخرج من قعر بئر عميق:

"انت تهدر وقتنا، اعترف بالحقيقة، بكل ما تعرف افضل لك، وإلا سيأخذك هذا العسكري إلى غرفة التعذيب.. اعترف إن أردت أن تخرج من هنا حياً؟"

"بماذا اعترف؟ بماذا أقسم لك لتصدقني! لقد قلت كل ما أعرف في حدود علمي"

"تقسم؟! وهل أنت مؤمن لتقسم؟ في أي دين تعتقد يا عميل يا كافر.. هه.. أي دين؟"

ود جادين أن يقول له:

"أنتم العملاء، أنتم الذين لطالما تآمرتم على هذه البلاد وروحها وتاريخها وأديانها وثقافاتها وشعوبها!"

عندما دكت جيوش محمد علي باشا المصري الألباني، قياقر وطوابي البلدة القديمة في ١٨٢١ وأصبحت البلاد الكبيرة مفتوحة على مصاريعها لخيولهم، ماذا حدث؟.. أصبح الجنكويز عملاء لهم، يوالونهم في كل شئ، لا يريدون لمصالحهم أن تتضرر!

وما أن بدأت مصالحهم تتضرر، حتى تهافتوا.. جاءوا لشعب البلاد الأسيرّة وقالوا:

"نحن أمة واحدة، أمنا واحدة، لم نأتي من ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء بنساء، تزوجنا هنا ووُلدنا هنا، أسلافنا ماتوا هنا، تعالوا نقاتل معاً كتفاً بكتف هؤلاء الغُزاة. ونهدم الجدار العازل!"

تناسى شعب البلاد الأسيرّة كل ذكريات الماضي البائس: الرق، التعذيب، القتل، الإذلال.. وقاتل معهم كتفاً بكتف، حتى هزم الغُزاة!.. ماذا حدث؟ عاد الجنكويز سيرتهم القديمّة!

وعندما جاءت جحافل الأوروبيين البيض، واجتاحت البلدة القديمّة، مضوا في طليعة جيش الغزو، يقودونه دليلًا لمعرفتهم دروب ومسالك وسباسب ووهاد هذا الوطن الشاسع؛ واصبحت أرض البلاد الأسيرّة مشرعة على مصاريعها، لسنابك خيلهم!.. ماذا حدث؟.. تحالف الجنكويز مع الغُزاة البيض؛ نظير الامتيازات التي منحت لهم، وصاروا السوط الذي يجلد به الغزاة، شعب البلاد الأسيرّة!

وكانوا في طليعة المقاولين، استغلوا حاجة الأهالي الفقراء للقوت، استخدموهم عمالًا لتمتين الجدار العازل، مثلما استخدموهم من قبل أدواتاً لتجارّة الرق!!

ثم أخذت تطلعاتهم تتنامى، حنوا لماضيهم القديم في حكم البلاد الأسيرة، فجاءوا مرّة أخرى لشعوبها.. جلسوا معهم

في التكايا، في سجن القلعة، في الأحراش، في الأندايات في الوديان، تحت أشجار القمبيل وتحت سقوف البيوت الواطئة، أو العراء، حيث لا سقف!..

جلسوا معهم في كل مكان وقالوا:

"نحن أمة واحدة، الدّم نفسه يجري في عروقنا، فتعالوا نخرج هؤلاء الطغاة من بلادنا"

تأمل شعب البلاد الأسيرّة وجوههم الخادعة، ولا تفتأ ذكريات الخوازيق التي نصبوها له تطارده، قال:

"نحن لا نثق بكم"

فبكوا وقالوا:

"بل نحن صادقين هذه المرّة، اعطونا فرصة واحدة"

وهكذا قاتل معهم كتفاً بكتف، الى أن حمل القطار الغزاة تودعه الأغنيات:

"يا غريب يلا لي بلدك"

ثم ماذا حدث؟ عاد الجنكويز سيرتهم القديمة! كانوا يخاطبون أهالي البلاد الأسيرّة بلسان كشعب واحد، وعندما يجلسون إلى بعضهم البعض في جلساتهم الخاصة يقولون:

"لا نحن جنكويز هؤلاء العبيد السود ليسوا قومنا، نحن أصحاب دّم نقي ونسب شريف، جدنا ذلك النبي المقدس خلف تخوم الصحراء"

بل هتف شاعرهم التقدمي الأممي الأكبر:

"نحن جنكويز الجنكويز!"..

يقصد أنهم أقحاح أكثر من بعض بني جلدتهم؛ ذوي الدّم المخلوط، خلف تخوم الصحراء والبحر المالح!

وقال أحد مفكريهم بعد عودته من غياب طويل، في بلاد الفرنجة بوقاحة وجحود:

"لقد امتلأت البلدة القديمة بذوي العقائد المشبوهة، والسحنات السوداء الغريبة، هذا الحزام الأسود يخنق البلدة القديمة!"

"الحزام الأسود؟!"

منذ أول حاكم عام كان واضحاً، أن الجنكويز سيظلون يستأثرون بالبلاد الأسيرّة وخيراتها، مثل كل مرّة.

السنوات الطويلة التي قضوها في الحكم، راكمت تجاربهم وخبراتهم وأساليبهم في الغش والخداع، فأخذوا يبتدعون طرقاً جديدة، لتكريس كل شئ بيدهم.

كانت أهم أدواتهم بذل الوعود.. الكثير من الوعود لشعب البلاد الأسيرّة، التي لا ينفذ منها شئ! إذ يقبض الأهالي الريح بعد كل اتفاق!

ومع ذلك ظلت شعوب البلاد الأسيرّة، بصبر شديد تشرح للجنكويز، أن قيمهم الجنكويزية لا تناسب حقيقة حيّاة الناس في هذه البلاد، وأنهم ليس باستطاعتهم تبنيها بالكامل، كما أنهم لا يتعمدون رفضها بل يحاولون أن يكونوا أنفسهم، وأن محاولات فرض ثقافتهم الصحراوية القاحلة عليهم، لم تؤدي سوى لتشوههم، وتحطم أي أمل كي يكونوا أمة واحدة، لا تتنازعها أفكار لم تنبت من تربتها، وفي مناخها وتحت سمائها، وبماء هذا النيل وهذه الأودية، وفي كراكير هذه الجبال، وبين تلال هذه القيزان، وفي أدغال هذه الغابات، وانبساط الأرض القردود الشاسعة!

لكن الجنكويز لم يأبهوا! حاولوا أن يشرحوا لهم أنهم عرفوا الأديان، قبل أن يبعث نبي، إلى البدو ما وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة بآلاف السنوات! وأنهم عندما عرفوا الحضارة ونظم الدولة وإدارتها، كان الجنكويز مشردون في الصحراء، يتوسدون الرمل! حدود معرفتهم لا تخرج عن صوى الساري وعلامات الطريق إلى منعرج اللوى، الذي لا تفتأ قلوبهم تتلفت بحثاً عنه، وهم يطوفون.. يقبلون ذا الجدارا وذا الجدارا!

ظلوا على الدوام في كنف ما يكفي من الأديان، بالقدر الذي جعلهم يدركون، أن هذه الضمائر الشقية المعذبة، لهؤلاء الأهالي الطيبين، لم تعد قادرة على تحمل مزيد من الألم والتمزق، الذي تحدثه تناقضات أفكار الجنكويز المربكة! ورؤيتهم الممزقة للعالم، والتي تمزق كل شيء حولهم! بقدرتها الرهيبة على تبديد التاريخ والإنسان والجغرافيا!

كان الأهالي يتحدثون عن الجنكويز لكنهم غير راغبين في الحديث إليهم! لقد يئسوا منهم وظلوا مع ذلك متنازعين: كيف بإمكانهم التسلح بثقافة الثورة، دون أن يقطعوا مع الماضي!

هذا الماضي بعضه عزيز عليهم! هناك في الغابات كانوا يستضيئون بنارهم هم لا نار الجنكويز لا يتحدثون إلى الجنكويز بل يتحدثون إلى أنفسهم عن الجنكويز وأصواتهم ترتفع وتنخفض.. وهم يقولون:

من ظلام هذه الغابات حتما ينبجس فجر جديد، تكنس فيه آثار هذه الثقافة، التي تريد إخضاع الناس وتجريدهم من إنسانيتهم.. القضاء على تقاليدهم ولغتهم.. هذه الثقافة التي تجعلهم يزرعون لتأخذ زرعهم و ماشيتهم وأرضهم، من يقاوم يموت ومن يخضع يتشوه!

"اعترف"

وأغرقوه بأسئلتهم النهمة، استفرغ كل الإجابات الممكنة، شعر في أعماقه بخواء مريع، كأنه يهوي من مكان عال، عال ويسقط في هوة لا قرار لها! أوقفوه لساعات طوال في الشمس اللاهبة، كان يشم في جسده رائحة مزيج من الشواء والعرق اللزج، بسبب الرطوبة العالية قريباً من النّهر، وكان الغضب العارم داخله ينكتم، لا يقوى على الانفجار!

"اعترف"

وهوى الجنكويزي مرّة أخرى يصفعه بقوّة، فأغمي عليه!.. ورآها في إغمائه.. هيلدا، تلوح بكفها في قلق، وبعيونها نظرة متسائلة لكن أسيانة، حزينة.. أين أنت يا هيلدا؟ لا تقلقي، ففي الزنزانة المعتقلين أهل بعضهم، قربتهم المأساة وسياط الأسئلة، التي تلسع الذاكرة، والهراوات التي تفري الظهور، واللكمات التي تجعل الوجه منتفخا بالكدمات.. أحبك هيلدا.. أحبك...

لا يشبعون من فري لحم المعتقلين، ولا يرتوون من دمائهم المتفجرَّة، انتفض باب الزنزانة بشدة، لينشق عن جنكويزي ضخم الجثة، اقتحم نعاسهم، قبض على قفا جادين وشده بقوة، ركله أمامه فاصطدم رأسه بالجدار، فقوم مساره بلكمة، على فمه. دفعته لابتلاع دمه! وهو يصرخ:

"استقم أيها العبد الأسود"

هؤلاء الناس غريبون حقاً، اخترعوا النظام الدلالي للألوان، فقط ليزرعوا في وجدان النّاس أن اللون الأسود كريه، ويجب إذلاله واستعباده! لو قتلوا كل من يرونهم سوداً في البلاد الأسيرّة من سينظف أوساخهم، ومن سيزرع لهم ليأكلوا، من سيقاتل طوائف صانع الفخار نيابة عنهم، لتظل السلطة في يدهم يعزون ويذلون من شاءوا!

الثوار المقاتلين لم يتحولوا لوحوش، إلا للقضاء على وحشية الجنكويز. الحاكم العام يعرف ذلك، لذا فتنهم ليقتلوا بعضهم بعضاً، حتى يفشلوا في مجابهته هو.. والان هم يعرفون ذلك، لذا تدنو أطرافهم، لتلتقي في طائفة واحدة.. طائفة صانعي الفخار المتحدة.

❁❁❁

كالطوابي غربي النّهر، وهي تنهد تحت ضربات مدافع الإنجليز، تحشرج صوت جادين في الفضاء الملغوم، للزنزانة الوجلى: الخليفة ود تور الجر الثاني، كان لا يحب الرجال الأقوياء، كان يجمع حوله الضعفاء المتملقين، الذين لا يعارضونه. ويرغم زواره على الجلوس على الأرض، مهما علا شأنهم! بينما هو جالس على العنقريب!

لم يكن ثمّة من يجرؤ على الحديث أمامه دون إذن، أو الحديث إليه وهو يتطلع في وجهه!.. أحد الشوام الذين أسلموا بالقوة، -كان أحولًا- كاد أن يفقد رأسه، لأن الخليفة ظن خطأً، أنه ينظر إليه!

كان ود تور الجر الثاني، عندما يبعث رسوله إلى أي شخص، يقف الرسول أمامه ويصفق، ثم يستدير جارياً، فيتبعه الشخص مهرولًا أيا كان مقامه، دون أي اعتبارات للتراتبية الاجتماعية!

هؤلاء النّاس الذين جعلهم الخليفة يهرولون، صفعوا أبوابهم بوجه رسل ود تور الجر بعد هزيمته في البلدة القديمّة، رافضين دعوته لهم بالهروب معه إلى دار الريح، ليلقى حتفه في أم ضروس وحيداً، فتنطوي معه صفحة استبداده إلى الأبد!

تنهد المريود:

"حقا كان مستبداً لا نظير له، لا يتورع عن ارتكاب أي جرم، حتى أنه سمم شقيق حامد أب روكو بالشراب، رغم أنه لم يكن يقدم شرابا لزواره! فقد كان شديد البخل!"

همهم جادين:

"هذا يفسر سلوك الجنكويز ضد السكان الأصليين في دار الريح، في هذه الحرب الدائرة الآن، ويشرح سلوكهم على عهد دولتهم بقيادة ود تور الجر الثاني في البلدة القديمة ذلك الوقت!"

❁❁❁

وبعد أن انصرف حامد أب روكو قال لأهله:

"بعد الشربتو عند ود تور الجر، أنا مانى صابح لى بكرة"

فقالوا له:

"انت وكت عارف شربتو ليه؟"

فرد:

"خفت كان ما شربتو، يسوي فيني شي، يمكن ما أقدر عليه، يخجلكم"

وفعلًا لم يصبح على أب روكو صباح آخر.. صبح ميت!

وكذلك قتل رجب عبد الدايم بالسم، عندما علا شأنه وصار محبوباً ومنع جنوده من نهب الناس. حتى اصبح مضرب المثل:

"رجب عدل والجداد قدل"

الأمير حسان قائد سلاح المدفعية، وكما قال سالم الدهنون لكباسة مهدداً البعاتي حمدان:

"باكر يجي ابقرجة وتقيف الهرجة"

والذي كان له القدح المعلى، في حصار وفتح المدينة الزاهية. أرسله ود تور الجر في مهمة وهمية لبلبل درمنقرة حيث أُعتقل ووضع في القيود، ولم ينقذه سوى احتلال الفرنساويين لابشي إذ سلموه للنصارى فمات بعد الاحتلال..

كباسة الفارس المغوار، الذي هزم شواطين بيك في معركة السفروك وفتح دار الريح لود تور الجر، قتله أبو درقة بأمر منه، لأن ود تور الجر لم ينسى أن كباسة قد جلده، عندما كان عبداً، قبل أن يلتحق بخدمة شواطين بيك. وهكذا أرسل إليه رأس البطل كباسة.. وكباسة حتى الرمق الأخير، كان يضحك في وجه جلاديه..

البعاتي أب جيقة، الذي كان متطرفاً، واجه نفس مصير كباسة، إذ اتهمه ود تور الجر بالكفر والزندقة معا! وشنقه لأنه تجرأ وقال رأيه في المجازر التي أوقعها الجتكويز في ديار البعاعيت. والمجازر التي قادها تور الجر بنفسه، في دار صباح والتي دفعت الأمير أب درقة إلى الفرار والاحتماء وعشيرته في جبال "كتري".

ومن أسوأ الحوادث، تلك التي علق عليها كسبان قائلاً أنه لا يريد أن يعمل شيئاً، يسب به بعد موته:

"وجعتني شردة الكنجس الزول كان بيتنبر ويقول بياكل الجمر، كلو طلع كلام ساي"

بعد الهزيمة ساق ود تور الجر نساء عشيرة الكنجس سبايا عاريات! من ديارهن إلى البلدة القديمّة! وكانوا يعطونهن العيش الحب لأكله مثل الغنّم. واختار تور الجر اثنتين من الكنجسيات كمحظيات وسراري، رغم أنه كان يمتلك عشرات الخلاسيات من كل قبائل البلاد الأسيرّة..

يحكي كسبان:

"ذهبت مع محجوب الجرادة لزيارة العامل محمد ود الطينة لمرضه، وجدنا معه ملازميه: الأمير عبد الصمد وعبد العاطي والرضوان، وكلهم من البعاعيت وأمامهم كفتيرة الشاي. وفجأة سمعوا صوت البابور الآتي بنساء الكنجس اللاتي أسرن بعد المجزرة. فضرب محجوب الجرادة فخذيه قائلا:

"كب لي سريع.. أنا ماشي لتور الجر يديني كنجساوية اسويها سرية"

فما تم كلامه إلا ونهض ود الطينة المريض، وصفعه على وجهه صفعة كادت تلقيه على الأرض، وضرب الكفتيرة برجله قائلًا:

"وكمان تشرب الشاي في بيتي تشرب السم"

فغضب الجرادة:

"يا محمد تضربني؟!!"

فرد عليه:

"واقتلك.. وهل تور الجر يقدر يعمل الكنجساويات سراري؟ وهل يقدر يعملهم.. إذن ما البلدة القديمّة تقيد نار؟"

وخرج الجرادة غاضباً، وتبعه الأمير عبد الصمد فزعاً، ورجع ود الطينة لسريره وهو يبكي، فنهض الرضوان وقال:

"والله يا ود الطينة تور الجر ما يرضى يجعل الكنجساويات سراري"

وبعد أن خرجوا قال كسبان:

"في مثل هذه الأيام، تعمل مثل هذا العمل، وتتكلم مثل هذا الكلام؟"

فرد:

"أنا عارفك جبان، ماذا يريد الجنكويز أن يعملوا لنا أكثر من هذا، وما قيمة الحياة بهذه الحالة؟!"..

وذهب الجرادة متهيجاً، شاكياً للمقربين من تور الجر.

وعندما تأخرالبعاعيت في الحضور للبلدة القديمّة تنفيذاً لأمر تور الجر، أرسل الأخير جيشاً أوقع فيهم مجزرة بشعة، وأخذ سبعة وستين من رؤسائهم ونسائهم وأطفالهم إلى البلدة القديمة، وقام ثلاثة من أكبر جلاديه، بقطع أيديهم وأرجلهم، وشنقوا بعد ذلك!

وبالرغم من أن الضحاك كان من أصدقاءه المقربين. وهو الركن الركين بين أركان وأعيان دار فاز، إلا أن تور الجر أجبره على حضور قتل أهله البعاعيت. وعندما تأخر الأمير "بركاوي" في الحضور، تعرضت قبيلته إلى مجزرة بشعة، وأرسل أطفال ونساء قبيلته سبايا إلى البلدة القديمة، وبيعت قطعانهم بريالين أو ثلاثة للثور أو الجمل، بدلًا عن ستين ريالًا مجيدياً.

وبعد قتله لأهالي الصعيد أخذ الكثيرون منهم كعبيد في صنادل مقفولة، فمات أغلبهم اختناقاً.. وبعد هزيمة قبيلة الردوك استباح ممتلكاتهم، وأباح دمائهم، الأمر الذي جعل كثيراً من أقسام الردوك ينتسبون إلى القبائل المجاورة.

كانت أنفاس جادين لاهثة، متلاحقة، والعرق يقطر من جبينه، على صفحات التقرير، وبروف محمود صامت لا ينطق بحرف!

❀❀❀

جذبه العسكري الجنكويزي من ياقة قميصه، وهو يدفعه أمامه، في شبكة من الممرّات، إلى أن أفضى أحدها إلى باب صغير، فأخرج مفتاحاً من جيبه، فتحه ودفعه عبره بعنف، حتى وقع على الأرض غائباً عن الوعي!

آخر شي سمعه، صوت الباب يغلق من خلفه!..

عندما أفاق، تبين زنزانة ضيقة ومكتظة، شاحبة الضوء!.. كانت اضاءتها تتسلل من كوّة يتيمّة، صغيرة تكاد تلتصق بالسقف، تبين خلال ضوئها الشاحب، وجوه ناحلة مرهقة، تضج بالألم والحزن والعذاب!

كانوا جميعهم مثله، يحملون اثر التعذيب في وجوههم المتورمة، التي خددها الألم، وعيونهم التي تنطق بالحزن والخوف والعذاب!

انتظر احدهم يسأله، يقول أي شئ، لكن لم يسأله أحد. ولم يقل شيئاً لأحد.. جر جسده على الأرض الخشنة، يبحث عن متكأ على الجدار، الذي احتله المعتقلون بظهورهم. افسح له أحدهم مكاناً بينهم، دون أن ينطق بكلمة.

كانوا جميعاً مسكونين بخوف ورعب. ربما، خوف من كل شئ.. يواسون بعضهم في صمت قاتل! قطع صوت متحشرّج الصّمت:

"هل سيقتلوننا؟"

رد احدهم:

"لا أدري"

تذكر صانع الفخار، وتساءل:

"ترى هل مر بما يمر به هو الآن؟ ترى هل عذبوه هكذا، قبل أن يقطعوا جسده أشلاء، ويحرقونه مصلوباً على صليب شجرة اللعوت؟"..

هو جادين جانو لم يعد يفهم شيئاً. لا يجد اجابات لأسئلته. لا يفهم لماذا يعتقلونه؟ ولا لماذا ظلوا يطاردون صانعي الفخار، ويستهدفونهم بالقتل؟ ولا كيف يجيبون عن هذا السؤال؟

هل اعتقاد صانع الفخار، بقتلهم لتاريخ البلاد الأسيرّة، وسعيه الدؤوب لإعادته إلى الحيّاة، جريمة؟

هل نهله من روح هذه البلدة القديمّة المعذبة، وتعطشه لتخليدها كنموذج للبلاد الأسيرّة، عمل يُعاقب عليه؟

حكى الأهالي عن ماضيهم العريق لآلاف السنوات، قبل أن تُخلق أمة الجنكويز في موطنها الأصلي وتظهر للوجود.. قالوا:

على هذه الأرض، ظل أسلافنا، يلعبون أدواراً عظيمة في الدراما الإنسانية للعالم القديم.. هنا على هذه الأرض ازدهرت حضارات وقامت دويلات وتوالت هجرات في فترات متعاقبة، جعلت من هذه الأرض الشاسعة، مسرحاً كبيراً للعقائد والأفكار وللحيّاة!

اشترك الأهالي عبر التاريخ، في تشكيل ملامح البلاد الأسيرّة، بالقدر نفسه الذي أثروا به في أحداث الجوار وتأثروا بها، وهكذا ظلت نقوشهم على الصخر والحجر والفخار، توثق لحياتهم في السجل العام للفعل الإنساني!.. وقوته وقدرته وحضوره المهيمن!

الفرنسي فردريك كلود الأب الروحي لاكتشاف آثار البلاد الأسيرّة أغرى الباشا الكبير بالذهب، في هذه البلاد الشاسعة، لم يخبره عن نواياه الحقيقية، في تعقب آثار هؤلاء النّاس السود، وتاريخهم الغامض!

الأمر نفسه فعله بورخارد وفيرليني، بذريعة البحث عن الكنوز، التي كان الباشا يتعطش لنهبها!

هذا القناع-الذي راح ضحيته أحد الاهرامات العظيمة لمروي! أخبروهم أن قوى العالم الكبرى، وهي تتبادل الأدوار عبر التاريخ، ظلت تنظر لهذه الأرض، تتطلع إليها.. فها هو ملك بروسيا فريدريك وليم الرابع، يبعث

ريشارد لبيس خصيصاً، لرسم خرائط مناطق الآثار، وهو ما فعله متحف الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

ظل علماء الآثار والتاريخ والمجتمع، يتوافدون دون انقطاع خلال عشرات السنوات، لفك طلاسم الرموز المفقودة، لحضارات وشعوب البلاد الأسيرّة، المتسمة بحزن شقي! وأسى ولوعة لا شبيه لهما!

كانوا يحاولون اكتشاف منابع هذا الحزن.. مصدر هذا الأسى.. مسارب هذه اللوعة.. كانوا يحاولون المحاولات ذاتها، التي يحاولها جادين جانو الآن! لاكتشاف هوية هؤلاء الأقوام السود، الذين تركوا فؤوس يدوية كمخلفات حضارية، لأكثر أزمنة العصور الحجرية قدماً.. هنا في هذا الموقع، الذي سيصبح اسمه بعد مئات الآلاف من السنوات "خور أبو حجل" على مبعدة من مقرن الأودية..

كانت هويتهم لا تنتمي لأي عنصر أسود عرفه التاريخ!.. فهويتهم مصبوغة بلون ورائحة وطعم هذا المكان!

مثل هذه المخلفات تم العثور عليها في مختلف وديان وسهول البلاد الأسيرّة، من أقصى دار الريح حتى دار صباح، ومن أقصى الصعيد حتى السافل.

بل أقدم إنسان "بورتو- بشمان" في هذه القارة، عُثر على جمجمته هنا بين النّهر والسهول المنحدرّة من الصعيد ودار

صباح، حيث ينحدر النّهر العكر من أعلى هضبة الشمس، ويعبر السهول الواسعة ليلتقي قرينه على مقربة من "ابوحجل!" في قلب دار صباح! جوار البلدة القديمّة!

من مخلفات هؤلاء القوم، عرف العالم أن أهل البلاد الأسيرّة في أزمنتهم الغابرة، كانوا صيادين مهرّة، حيث لم تكن هناك، في هذه الأرض الشاسعة، قبل خمسين ألف سنة صحراء كما الآن!

فالنّهر.. هذا النّهر غير مجراه عبر العصور، لينحدر من الصعيد للسافل، في مجرى جديد!

النّهر، هذا النّهر كانت له مئات الروافد فيما مضى، تتخلل الغابات والأراضي الزراعية القردود.. لم تكن هناك صحراء واسعة كما الآن، فالنبات يكاد يغطي كل شبر!

وعلى طول فروع النهر وروافده، عاش أهالي البلاد القدماء في العصر الحجري. هناك.. حوالي ٤٨ كلم أسفل البلدة القديمّة، حيث تم العثور على مركز حضاري، قائم على صناعة الفخار، ذي الحواف السوداء!

عرف العالم من مخلفاته، أن أهالي البلاد الأسيرّة، في عصورهم الحجرية القديمّة، عرفوا الزينة والحلي، ونوع معين من السهام.. كما عرفوا استئناس الحيوان، ومبادئ الزراعة والصيد من البحر والبر والغابات!

كل من اطلع على تلك المخلفات، التي تعود إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، وقف مشدوها، يشعر برهبة غامضة، مصدرها طيف ينبثق من هذه المخلفات، يشكل وجهاً غامضاً في المدى اللامتناهي، ليربك جادين جانو، المنكفئ على مخطوطات الخزين، بالتساؤل الملح:

ترى هل هو طيف صانع الفخار الأول!

تراقص نور باهت في آخر الممر الطويل، أخذ العسكري الجنكويزي يجره على البلاط الأسمنتي الخشن، لتمتزج حشرجة جسده على البلاط، مع صرير الأبواب الحديدية، وهي تفتح وتغلق.

لكزه حذاء الجنكويزي الشرس، وهو يدفعه ويغلق الباب وراءه، امتدت أيدي زملائه المعتقلين، من نبع آلامهم وأحزانهم تسنده، وأصواتهم الواهنة تهمس في ألم:

"تجلد بروفيسور جادين.. تجلد.. سينتهي كل هذا العذاب قريباً"

ثلاثتهم، بوجوههم الناحلة، التي لا يمكن أن يخطئها في هذه الظلمة.. بأصواتهم الواهنة التي تتدفق حزناً..

الزّمن في المعتقل يتوقف، تتسرب الذكريات البعيدة، والحكايات التي خلفوها وراءهم.. تسلل صوت مرتعش وفي نبرات متوترة أخذ يحكي:

"كنت شاهداً على عشرات المجازر في دار الريح، رأيتهم وأنا طفل يحرقون قطار الركاب، الذي يحمل أهالي الصعيد، ويرقصون بفرح على صهوات جيادهم حوله!.. فتذكرت تور الجر الأول! لكم كانوا يشبهونه!

رأيتهم يكونون المليشيات، يسلحونها، يحرقون القرى والفرقان والحلالات، رأيت مليشيات الجنكويز وجهاز عسسهم يعتقلون مئات الأهالي، رأيتهم يعذبونهم ويقتلونهم ويدفنونهم في مقابر جماعية! رأيتهم يحرقون القرى ويغتصبون الفتيات والنساء أمام أزواجهم، آبائهم، أشقائهم، أبنائهم..

كانوا يقصفون القرى والحلالات بطائرات الانتنوف، ثم تحاصر مليشياتهم القرى باللاندكروزرات واللاندروفرات، كانوا يهجمون على صهوات جيادهم وهم يهتفون بغبطة، وألسنة النار تشتعل لتحرق كل شيء.

رأيتهم أنا المريود..

كنت واحداً منهم، أنا شاهد الإثبات الجنكويزي المنشق.. حامد القطي، لذلك أنا معكم هنا! ولذلك أفهم ما تقول يا رجل!..

رّان على فضاء الزنزانة صمت عميق، أصيب الجميع بهاء السكت. وأخذ رأس جادين جانو لحظتها، يدور بشدة، كأنه يحلق في ظلمة لا حدود لها!

تنهد جادين في حزن وأسى! هؤلاء المشوهين يغتصبون النساء، ثم يمضون إلى الحج لغسل خطاياهم، وهم يكثرون من الصلاة على النبي!

يقتلون الأطفال والشيوخ، ثم يصلون الصبح حاضراً في جماعة!

أي جنون واختلال وتشوه هذا!

❁❁❁

أنا المنشق المريود، لطالما أصبت بالحزن وأنا أقرأ الأشعار على شاكلة:

الرجال تخشى وتهاب مرقتنا

فرش البيت حرير ترقد عليه فرختنا

هذه الأشعار البائسة، الناضحة بالتمييز، والاستعباد، التي تذيعها على الملأ أجهزة إعلام الحاكم العام.. أو تلك الأشعار التي تنضح بالحسرة والانكسار كقول شيخ العرب:

"ناسا قباح من دار غرب يوم جونا

جابوا التصفية ومن البيوت مرقونا

أولاد ناساً عزاز متل الكلاب سوونا

يا يابا النقس، يا الانجليز الفونا..

إذ أتساءل عن مقدار الظلم والألم الذي تنطوي عليه هذه الكلمات وهي تستجير بالغريب. هل كان ذلك قُبيل فرار شيخ العرب الشاعر من البلدة القديمّة، وإرساله لنديمه لشراء غطاء من السوق، يقيهم شر البرد في فرارهم..

عندما عاد النديم بعد وقت ليس بالقصير، وكان صبر شيخ العرب قد نفد، وقد تناهشته المخاوف والظنون، فخاطبه باستياء:

"ها زول ها عايز تكتلنا عشان غطا، الزول ده يمكن يغير رأيو البطانية خلها، النبقى مارقين"

وتور الجر كان قبلها قد ندم علي السماح لبعض شيوخ العرب بمغادرة البلدة القديمّة، فأرسل في طلب بعض الذين عندما بلغهم مرسال تور الجر قالوا له:

"قول لي تورك العربان خالفوا رأيك"

فغضب تور الجر وأمر باعتقال أقاربهم الذين يعيشون في البلدة القديمّة. وصادر أموالهم وأخذهم محمولين علي العناقريب، إلى سجن التأبيدة.

وعندما مرت بوارج الإنجليز بعد معركة "ام صيقعون" بضواحي البلدة القديمّة خرج أهل "الكويك" لملاقاتها بالزغاريد والتهليل، إلا أن البواخر كانت مسرعه نحو البلدة القديمّة، فلم تتوقف لتلقي امتنانهم.

فقامت كتيبة من كتائب تور الجر، بالانتقام من أهل الكويك، وساقوا الشيوخ والنساء والأطفال أمامهم، ونهبوا كل شئ، حتى الثياب من أجسام الأهالي. إلى أن تمكن شيخ

العرب الشاعر من خداع كتيبة تور الجر، وإقناع قائدها بإرجاع النساء والأطفال والشيوخ، حتى لا يشاركوهم الزاد والماء، وهم قد يواجهون جيشا غازياً، ثم غافله ومن معه فهربوا فى الليل وعبروا النّهر.

في عهد تور الجر عانى كل الأهالي الذين عضدوا دولة تور الجر ودعوتها، منذ ميلادها على عهد الغُزاة الأتراش، لكنه اضطهدهم فيما بعد، وأذاقهم من الكأس نفسها التي أذاقوها للآخرين، الذين احتقنوا الغبن المتراكم!

كان تور الجر لا يقل ادعاءً عن المقدس سره، الذي رفض أن يسلم ويرد على خطاب "وود هاوس" قائلًا:

"إذا قتلناكم فسنجد كل ما وُعدنا به، أما إذا قتلتونا فلن تجدوا إلا جُبة متروزة وحربة مركوزة"

من اعترض على هذا الإضطهاد، عُزل أو سُجن أو ضُرب. ولقد اجتمعت الثلاثة لبعض الأهالي الأوفياء. إذ لا يمر يوم إلا ويأمر تور الجر بضرب أحدهم خمسمائة سوط. على صلبه إلى أن يتقرح، ثم على ظهره إلى أن يؤتى به منبطحاً على حمار، فلا يهتدون إلى مكان يُضرب عليه، فيضربونه على لسانه ووجهه.

وعندما طفت شكوك البعض إلى السطح حول صدق دعوة المقدس سره الراحل، وخليفته تور الجر وقال الناس:

”المقدس سرّه غشانا وتور الجر كذب علينا"

ضرب تور الجر أعناقهم. وصادر أموالهم وسجن البعض وكان الواحد منهم في طريقه إلى المشنقة، يرفض شرب الماء، الذي يُقدم له. ويأخذ الحبل بنفسه ويضعه حول عنقه.

وكان دماس أحد الرجال القلائل الذين تصدوا لرغبات تور الجر في إهانة الآخرين، إذ رفض أن يجري عندما طلب منه تور الجر ذلك.. وقال:

”يا تور الجر، الكرعين البتتعلم الجري ما بتقيف!"

فنكل به وقبيلته، ووضع كبارهم في الأغلال حتى ماتوا..

وهكذا لم ينقض عهد "المقدس سرّه" وتور الجر، إلا ومات ثُلث أهل البلاد الأسيرّة بسبب الحروب والاستبداد، وسوء إدارة الدولة!

وعلى الرغم من حرص بعض الوجهاء على إنتعال "الشِقيَّانة" وارتداء الـ"جُبة" المرقعة التي يتميز بها أتباع المقدس سرَّه، إلا أنهم عندما يمرون بجنكويز ”تور الجر“ يهجمون عليهم ويفتشون جيوبهم، ويأخذون الريالات التي داخلها! ثم يقومون بركلهم وضربهم.

وذات مرَّة رأى تمساح شقيق تور الجر، الأمير دماس على حماره، فأمره أن ينزل منه لأنهم يحتاجونه لأحد العبيد،

الذي كان ماشياً، برغم أن دماس كان يلبس ملابس أتباع المقدس سرّه المميزّة، ويعلق "التركاش" الذي توضع فيه الحراب الصغيرة، على سرج الحمار!

ثم زفر حامد القطي في وجه جادين والمريود، زفرة، خرشت أذون المعتقلين الذين انكفأوا على أكبر مآسيهم الوجودية لحظتها!

¤¤¤

في الساعات الأولى من الفجر، جاء عدة عساكر جنكويز. أخرجوهم جميعاً، ودفعوهم باتجاه سيارات مظللة مستعدة للتحرك، كانت جاثمة في الفناء الواسع، عصبوا أعينهم واوثقوهم، ودفعوهم ثلاثة ثلاثة إلى داخل السيارات، بدى لجادين أن الجميع يشعرون في هذه اللحظة بدنو أجلهم، كان ذلك واضحا في وجوههم المنتفخة المتورِّمة، التي جفت عليها بقايا الدماء، قال أحدهم بصوت هامس باكي منهار:

"قلت لكم سيقتلوننا، ويرمون جثثنا في النّهر أو في أي خلاء"

رد اخر:

"سمعت أن لديهم آباراً أسمنتية بغلاف سيراميك، محكمة الغلق لهذا الغرض، يذوبون فيها النّاس بحامض الكبريتيك"

صرخ في وجوههم أحد العساكر:

"فيماذا تتحدثون.. اصمتوا يا كلاب"

وانهال يشتمهم بكل ما توفر له من بذاءات..

في مثل هذه اللحظات، تتوارد على الخاطر كل ذكريات المرء، منذ الطفولة حتى اللحظة الراهنة.. يتذكر كل شئ، حتى الجرائر الصغيرة والفتيات، اللاتي أحبهن في سنوات المراهقة! وكل شيء!

شعر جادين وهو منكفئ داخل السيارة، أنها تسير على طريق متعرج كثير المنحنيات، وتنتقل من طريق مسفلت لآخر وعر، ربما لأكثر من ثلاث ساعات، وتتوقف أحيانا لأكثر من ربع ساعة، ثم تعاود المسير، حتى توقفت لفترة تزيد عن ثلاثين دقيقة، ثم فُتحت أبوابها وأمروا بالنزول:

"انزلوا يا عملاء يا فجرة يا كفرة"

أوقفوهم صفاً واحداً، وهم يلكزونهم بأفواه أسلحتهم القصيرة، دون أن يفكوا وثاقهم، أو يحلو العصابات عن عيونهم!

مضى الوقت ثقيلًا، وخيم صمت قاتل، مشبع برائحة النّهر.. كانوا في مكان قريب من النهر، الذي أثار دعاشه كل هواجس وظنون ومخاوف البلاد الأسيرّة، في رأس جادين دفعة واحدة..

حاول جادين أن يتماسك، أن يصرف عنه الأفكار السوداوية عن المصير المتوقع، بالتركيز في شئ آخر، أي شئ سوى هذه اللحظة، فسرح في المخطوطة وهوامش الخزين، سرح في هذه الأرض، التي قبل ميلاد المخلص يسوع بثلاثة آلاف سنة، ازدهرت فيها صناعة الفخار، ازدهاراً منقطع النظير، وازدهرت إلى جانبه صناعة النحاس أيضا، حيث كانت الكتابة في أطوارها الأولى بالرمز والصور، فتم نحت صقر الجديان في كل أبواب المدينة.. طائر البلدة القديمّة الخالد، رمزاً للإله الملك.

وحفظت النقوش التي تصور أسرى مثلهم الآن، في هذه اللحظة، على صخور الجبال أسفل البلدة القديمة، ذكرى معارك وحروب، خاضها أهالي البلاد الأسيرّة ضد الغُزاة.

كانت النقوش التي تشكل رموزاً دائرية وخطية، تكشف بجلاء أن معارك دارت هنا، على مقربة من النّهر. دائما معارك البلدة القديمّة، حول النّهر!

وتمضي النقوش في شكل دائرتين، داخل كل منهما خطين متقاطعين عمودياً، وفوق أحدهما طائر يشبه صقر

الجديان، وفوق الأخرى علامة غامضة، والرمز بمجمله ربما يعني كلمة "مدينة" بمعناها القديم، وربما المقصود أن القتال؛ الذي دار انتهى بخضوع العصاة! هكذا فكر جادين!

وحملت النقوش صوراً لأشخاص ملتحين، تشبه سحنتهم الجنكويز الأوائل.. كانوا في مظهرهم، المحفور في النقوش على الصخر، أثر البؤس والتعب والخوف العميق، الذي كشفته نظراتهم الزائغة، وقرفصتهم فيما يشبه الجب، والشيخ الوقور الذي يقف بعيداً ينظر إليهم عابس الوجه، وهو يشير بسبابته في حركة تهديدية واضحة!.. كأنه يحقق معهم!

ما يشي عن نبؤة غامضة! كأن الشيخ كان يحذر من هؤلاء الملتحين، ذوي السحنة الغريبة، الذين سيحيلون حياة البلاد الكبيرة شقاءً وضجر، بعد آلاف السنوات!

لكن ما يلفت الانتباه، قرفصتهم في الجب، كأنهم بانتظار محاكمة، ما يشير مع عبوس الشيخ الوقور، وحركة سبابته، أنهم أُقتلعوا اقتلاعاً! وتم الزج بهم هنا! في المكان الوحيد الذي يستحقونه، كما تشير النقوش!

ما يلفت النظر حقاً، أن هذه السحنات هي نفسها سحنات ما عرفه الآثاريون "بالمجموعة الغامضة" والتي برزت إلى السطح، بعد سقوط حضارة مروي، والتي يزعم البعض، أنها المجموعة نفسها التي، بعد آلاف السنوات يتحالف

المنحدرون منها، مع "نبلاء كليوة" في جنوب النهر، والكيرا في دار الريح، وغيرهم من أهالي البلاد الأسيرّة في قبلها الأربعة، لتمتليء بالدويلات!

هذه المجموعة لم يبذل الآثاريون والباحثون، ما يكفي من مجهودات لمعرفتها، واكتفو بوصفها بالغموض، ربما لقناعتهم بلاجدوى، الكشف عن هذا الغموض، والزهد في معرفتها بتحديد أكثر، حتى اعتاد الدارسون على هذا الوصف!

لكن جادين ظل يعتقد، فيما يشبه الالهام الخفي، الذي لا تسنده أدلة، أنهم أصل الجنكويز! وذلك لأن حضارتهم الغامضة، اعتمدت في اقتصادها على صناعة التوابيت والاعتياش من تحنيط الجثث. بل وانصرفت أيضا لممارسة الاغتيال بالأجر!

لذلك كل ما خطرت قراءاته عن هذه المجموعة على باله، يقارن بين عاداتها السيئة كدفن الاتباع مع سيدهم، عند وفاته. وقتل الأب لبناته، بدفنهن أحياء! وعادات الجنكويز!

كذلك سحناتهم كما تبينها النقوش، مشابهة "لسحنات" سلاطين فاز والحكام العامين؛ وأمراء البلدة القديمّة والمدينة الزاهية والعراب، وسحنة هذا الضابط الذي حقق معه، وعساكره الجنكويز الذين عذبوه! قبيل اعتقاله بأيام قليلة.

كان علماء المعهد، قد عثروا على العديد من المقابر الجماعية، وشبه الدفن بالجملة، تحوي آلاف الضحايا، الذين قبروا مع اسيادهم، إلى جانب القبور، التي بينت الكشوفات أنها لإناث صغيرات!

وكان جادين قد افترع مقارنة، بينها وبين المقابر الجماعية، التي دفن فيها الجنكويز كثيرون من أهالي الصعيد دار الريح. بل وحتى أعضاء المحاولات الانقلابية الفاشلة!

هذه الدراسة المقارنة، عندما نشرتها المعاهد المعنية بتاريخ انتهاكات حقوق الإنسان في البلاد الأسيرّة، جلبت جادين إلى هنا.. هذا المعتقل الرّهيب!

الذاكرة عذاب.. تعمل في المعتقل ضد النسيان، عكس عقارب الزّمن، فيتدفق القلب بالحنين إلى هيلدا، الحكايا، الصور، المشاهد والوقائع الصغيرة في حياة عاشقين، وتضاريس الوجوه العديدة التي تخللت مسيرتهما..

الذاكرة في الزنزانة تستعيد الأحداث وترتب الوقائع، وفي صبر دؤوب تنسجها حدثا تلو آخر، وواقعة تلو أخرى.. وهي تنهل من روح هؤلاء المعتقلين المعذبين، الذين آخر حلم يحلمونه، هو الخروج على قيد الحياة أو سالمين، ومع ذلك يغنون في ليل السجون الصباحات الحيية المتوارية خلف أفق لا نهائي الحلكة.

كانوا يغنون، يفلتون أحلامهم من عقالها، بكل جنون الحزن، وبكل الأسى والعذاب.. هؤلاء المعتقلين الذين عاشوا جهنم في كل مكان منذ ولدوا، ظلوا يولدون في أغنيات محجوب شريف.. ليل السجون كابطال الأساطير القديمّة، دون أن يأتو للصعيد بسيرّة!

ينسون حياتهم التي كانت في الصعيد، السافل، دار الريح و و.. وينسون جهنمهم الآن، في هذا المعتقل الرّهيب، فلا يعودوا يتذكرون سوى أغنيات الشمس والخبز والحرية، فتتسع داخلهم مساحات الأمل في الخروج ولقاء احبابهم..

أمل يضيء حياتهم الوعرة، المظلمة، التي لطالما بحثت عن معنى للحيّاة، في هذه البلاد الأسيرّة القاسية!

❁❁❁

توجه نفر من أقرباء المقدس سره، يشكون تور الجر ويطلبون إليه إعفاؤه! فجاء رد المقدس سرّه أن أمرهم بطاعته والتأدب معه، بمنشور كُتب وقرئ بالبلدة القديمّة، وأُرسل إلى أنحاء الدولة، فهو بالنسبة له بمنزلة الصديق للنبي الكريم -كما قال- إذن فعل تور الجر كل ما فعل، برخصة من الله ورسوله، ومباركة من المقدس سره!

فالله و المقدس سره هما اللذان امراه بارتكاب ما ارتكب من جرائم، وليس للمقدس سره مانعاً في ذلك! فتور الجر ليس سوى أداة تنفذ إرادة الله والمقدس سرّه!

أوليس هو مشروع العرّاب نفسه، الذي لقي بسببه الملايين من أهل البلاد الأسيرّة حتفهم، وانتهى بمن بقى حياً إلى التشرذم والتمزق، والفقر والفساد والانحطاط!!

❁❁❁

خلعوا عنهم العصابات، وفكوا وثاقهم. حالما اعتادت أعينهم الضوء، أخذ جادين يتفحص المكان، الذي بدى كدائرة من الأبنية الملتصقة، التي يتوسطها فناء واسع، تتنتصب في مركزه شجرة نيم هرمة.

كان العساكر الجنكويز جميعهم بأزياء مدنية، تقدم منهم أحدهم، وهو يقول في تشف:

"من يجيئنا هنا مفقود، ومن يخرج مولود، هذا إذا خرج"

قال آخر في صوت ينم عن حقد غريب:

"لا يرسلون أحد إلى هنا، إلا إذا قرروا تصفيته، ماذا فعلتم لتتوجب تصفيتكم، ما هي جرائمكم؟!"

ظل ثلاثتهم صامتين، لم يفه أحدهم بكلمة، فهجم عليهم العساكر الجنكويز وانهالوا عليهم لكماً ولطماً وركلا، وهم يشتمون ويقولون:

"عندما نسألكم يجب أن تردوا"

فأجاب ثلاثتهم وهم يتلوون من الألم:

"لا نعرف، لا نعرف.. لماذا لا تصدقون؟!"

وانخرط أحدهم في بكاء مرير...

ليس سهلًا أن ترى رجلًا يبكي، فالرجال مجرد ضحكهم بكاء! هكذا ظلت ثقافة البلاد الأسيرة لآلاف السنوات، الرجل لا يبكي، لكن الجنكويز الآن ادموا كل القلوب، فأصبح حتى الرجال يبكون من المرارات، والإهدار والامتهان والإذلال..

شعر جادين بحزن لا حد له! قادوهم إلى مدخل مبنى كبير، وعبروا خلال عدة ممرات. ثمة معتقلون آخرون، مظهرهم وآثار الضرب والتعذيب عليهم، بمثابة بطاقة هوية، تميزهم عن العساكر الجنكويز في زيهم المدني.

تجاوز ثلاثتهم.. المعتقلين يقودهم العسكري الجنكويزي إلى باب في نهاية الممر، كانوا جميعهم جوعى، تنهش أمعائهم نفسها! جادين لم يذق شيئاً، منذ الليلة التي سبقت فجر إعتقاله. كان جائعاً وعطشا ومتألماً.. انهار احدهم:

"نحن جوعى، عطشى، أعطونا ماء بالله عليكم"

فانتهره أحد العساكر الجنكويز:

"وهل يضيرك الجوع والعطش، وأنت هنا محكوم عليك بالموت.. اصمت"

وتقدم عسكري آخر، لطمه بقوّة، حتى انكفأ على ظهره! لم يفه بعدها أحدهم بحرف، استسلم ثلاثتهم للجوع والعطش! وسرح جادين بخياله لا يصدق نفسه، ويتساءل:

هل حقاً نحن أحفاد أسلافنا الذين وصفهم الخزين، الأسلاف الذين عاشوا حياتهم معززين ومكرمين، يغضبون لمجرد إهانة شعب آخر للخيول، ويجتاحون بلداناً بكاملها لرفع الضيم عنها؟

هل نحن حقا أحفاد صانعي الفخار، أولئك الذين عاشوا في الحاضرة الحدودية أسفل النهر، في "أرض الأقواس" حيث يجري النّهر مسرعاً إلى مصبه، في البحر المتوسط، هناك حيث تم الكشف عن مدينة أثرية كاملة، تعود لآلاف السنوات..

كشفت الآثار عن أهلها، أولئك الأهالي المهرة في استخدام القوس، والذين ستطلق عليهم جيوش الجنكويز في الغزو الثاني بعد آلاف السنوات، لقب "رُماة الحدق" تعبيراً عن هذه المهارة، التي ضعضعت معنويات جيشهم، فجنحوا لعقد اتفاق للسلام!

هل حقا نحن أحفاد هؤلاء؟

وإذا كنا فلماذا نصمت، على هذا الذي يفعله الجنكويز بنا؟ أحذية الجنكويز تنغرس، في خاصرة جادين كالخناجر. تدهسه على الأرض، وتطحنه، فيتدفق نهر من الألم.

قيدوه، القوا به في قعر بئر وتركوه، لا يدري لكم من الوقت لبث، وهو يشعر بحياته تنطفيء كعود كبريت، فتح عينيه واغمضها، وأخذ يكرر إغلاقهما وفتحهما عله يحس بالحياة، فتجيء هيلدا بحزنها، نجمة تتلألأ في فضاء البؤس والاكتئاب، يشعر بانكسار روحيهما في قعر هذه البئر المظلمة! مثلما يشعر بتناقضات أفكاره، في هذه اللحظة التي يشتد فيها الألم.

لطالما تقدم على الدرب ذاته دون مساومة، يتبع خطى صانع الفخار، مثله.. لا يساوم، متواضعاً متشدداً، ومتوحداً، مولعاً بالرّفاه، الرّفاه لكل النّاس، ولا يحب الأغنياء، الذين يستأثرون دون الفقراء بكل شئ، زاهداً ومع ذلك لا يتحمل الفلس، يبشر بالشئ نفسه، الذي يحكم حياته وسلوكه..

فهو كصانع الفخار، كالمسيح أو محمد أو ماركس.. ككل الأنبياء، الذين بشروا بالشى نفسه، الذي حكم سلوكهم بين الناس! يفعلون ما بشروا به، ويبشرون بما رغبوا في فعله.. طالبوا أنفسهم بالمستحيل، وتساهلوا مع النّاس، بل لم يطالبوهم بشئ، سوى لأنفسهم! لا أحد يحبهم ويكرههم في الوقت نفسه، إذ لم تكن سيرتهم تخضع لاحتمال ثالث بين الاحتمالين!

هكذا كان صانع الفخار، وحاول هو جادين جانو أن يكونه.. أن يتبع خطاه فتلقفته السجون!

❁❁❁

كان جيش الغزو الإنجليزي منهكاً، متشرزماً هرب منه الكثيرون، و لم تكن قيادته ذات كلمة واحدة، ولكن ما كان يجول في أذهان هؤلاء الغزاة المحتقنين بالصلف الوراثي، وما كانوا يقولونه لجنودهم، إنهم سيواجهون "دراويش" لا علم لهم بفنون القتال، وإنهم معزولون قليلوا العدد!..

لكن وعندما صعد جندي الاستطلاع أعلا الشجرّة، رأى شيئاً لم يتوقعه!

رأي جيش كامل العدة والعتاد، رأي آلاف البشر علي مد البصر، أناس يرفعون الرايات، و يقفون في صفوف متناسقة، لم يصدق عينيه ففركها ثم فتحها..

فرأى أناس من مختلف الأجناس؛ ومن مختلف الديانات! رأي حتى الراهبات في ذلك الجيش، فعلم أن قائده غرر بهم، وأن جيشه سيهلك، وإنه لا محالة هالك فيمن سيهلك! فوقع مغشياً عليه!

وفيما بعد، العكس تماما!! جيش كتشنر الذي انتصر على تور الجر، كان يضم الكثيرين من جنود المقدس سرّه وتور الجر، أولئك الذين تم أسرهم، ورجعوا مع كتشنر، ليحاربوا رفاق السلاح القدامى. فما أشبه الليلة بالبارحة، فالحاكم العام يواجه فيمن يواجه الآن، رفاق السلاح من قدامى الجنكويز المنشقين!

ما الفرق إذن بين المقدس سرّه والعراب، يحكي تور الجر لأصفيائه:

"فيأتي النبي ويجلس معي ويقول: "شيخك هو المقدس سرّه فيقول إني مؤمن بذلك، فيقول: من لم يصدق به كفر. قالها ثلاث مرات"

ويذكر في منشور عرف بمنشور الدعوة، شبيه بمنشورات العراب "واعلمني النبي بأني المقدس سرّه واخلفني بالجلوس على كرسيه مراراً، بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر، وجمع من الأولياء الميتين وبعض من الفقراء الذين لا يُعبأ بهم، وقلدني سيفه، وايدني بالملائكة العشرة الكرام، وأن يصحبني عزرائيل دايماً، في ساحة الحرب أمام جيشي، وفي غيره يكون ورائيا. وأن يصحبني الخضر دايماً ويكون إمامنا سيد الوجود، وخلفائه الأربعة والأقطاب الأربعة، وستين ألف ولي من الأموات"

لقد صرح المقدس سرّه يا سادتي، أن تور الجر ولي من أولياء الله، وشهد له بالعصمة فقال:

"واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه، محمولة على الصواب، لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب"

وخوف من عارضه بخسران الدنيا والآخرة، حين قال:

"ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسي جزماً، فقد خسر الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين، ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة، والعياذ بالله.. وإن رأيتم منه أمراً خالفاً في الظاهر، فاحملوه على التفويض بعلم الله، والتأويل الحسن"

لذلك كرهه علماء عصره! كما يكرهه جادين الآن!

❁❁❁

سمع صوت التكة الغليظة للمفتاح، في الباب الخارجي، ومن الفتحة الضيقة للباب الثاني، نادى العسكري:

"هاكم"...

وقف اثنان من المعتقلين بسرعة، وتقدما نحو الفتحة. مد العسكري لفافة كيس بلاستيك، وجركانة زيت مليئة بالماء، وكوب من الصفيح، هو في الحقيقة، علبة صلصة قديمّة فارغة، مثل جركانة الزيت الفارغة، التي أعيد تعبئتها بالماء العكر!

كانوا ظمآنين يكاد يقتلهم العطش، صب أحدهم الماء في كوب الصفيح الصدئ، وأخذ يديره عليهم! كان طعم الماء غريباً، كأنه ممزوج بعرق أعضاء الإخراج البشرية!..

فضوا اللفافة، وجدوا فيها أرغفة محشوّة بفول مالح جداً، يكاد يكون الملح أكثر من الفول نفسه! واصبحت تلك هي الوجبة اليومية اليتيمة، كل يوم في نفس التوقيت، يمد العسكري اللفافة بالكيس نفسه، والجركانة نفسها، والماء نفسه والفول المالح نفسه، حتى فقدوا إحساسهم بالزمن!

كان كل شيء يتم بطريقة آلية، كل شيء هو نفسه، الوجوه النحيلة، التي تكاد تشارف على الموت، بقايا الدّم المتجمدة في الوجوه، الشفاه اليابسة المقشرة، حشرات البق والبراغيث والفئران الصغيرة، التي تتجول على الجدار خلف ظهورهم، رائحة النّهر المكتومة، الزحام.

لم يكن بوسع أحدهم أن يمد رجليه، ينامون مقرفصين، يستندون على بعضهم وعلى الجدران.. هذه التجربة القاسية وحدتهم، جعلتهم أكثر شفافية في الإحساس بآلام بعضهم، بهذا العذاب الذي تنضح به وجوههم، وهذا الإعياء الرهيب، الذي تنطق به كل خلية، في أجسادهم النحيلة المنهكة، الملأى بالتقرحات، يشعرون كأنهم كل واحد في هذه المأساة، التي فرضت عليهم!

كان جادين يشعر أن البؤس والحزن، اللذان يعيشهما الآن مع رفاق الزنزانة، لهما حزن وبؤس العالم كله! حزن فريد، ينبع من أعماق تاريخ البلاد الأسيرّة ووجدانها الجريح! فيتساءل:

هل، إلى جانب كل القيم، التي اتسمت بها البلاد الأسيرّة عبر تاريخها، كان الحزن والبؤس، قيماً متجذرّة كبقية القيّم، كما يشعر بها الآن؟

❁❁❁

ابتلع جادين صوته، اثر دخول جنكويزيان انتصبا فوق رأسه، ثم جاء المحقق وطوح بجثته فوق الكرسي، خلف مكتبه. أشعل سيجاراً فاخراً، وقذف عود كبريت بوجه جادين، رّن جرس التلفون، أخذ يستمع وعينيه تتفجران غضباً، لم يقل سوى عبارة واحدة:

"مظاهرة.. مسلحون!"...

ثم قفز من كرسيه بغتةً، ومن عينيه ينبثق شرر مدمر، ثم أشار إلى الجنكويزيان بنظرة خاطفة، وقفز تجاه الباب يغادر المكتب، كقط مفزوع..

شعر جادين أن ثمة أمر عظيم يدور بالخارج!

❁❁❁

في غالب الأوقات، لم يكونوا يستطيعون، تمييز الوقت أثناء اليوم. العساكر الجنكويز لا يخبرونهم، كانوا يعرفون الوقت خلال القادمين الجدد، أو عندما يتم اقتياد أحدهم لتعذيبه، أو التحقيق معه، حتى هؤلاء ليس مؤكداً معرفتهم بالوقت، لأي سبب من الأسباب، التي أهمها الخوف الشديد، الذي يفقد المرء، القدرة على التركيز، في أي شئ آخر عدا ما سيحدث!

بالقدر نفسه كان تعاقب الفصول على معتقل القلعة الرّهيب فظيعاً، ففي الصيف اللاهب، تصبح الجدران الحجرية فرناً لا يحتمل.. قطعة من الجحيم، خاصة في شح الحصة اليومية من الماء، الذي لا يتعدى جرعات قليلة لكل معتقل، بالكاد تكفي بل ريقه وخلاياه.. الاغتسال هنا حلم بعيد المنال.

بمرور الوقت كانوا يشعرون، أن جلودهم اندبغت بالعرق وإفرازات الجسم، التي تزكم الأنف برائحتها، كانت أظافرهم وشعورهم قد طالت، وفروات رؤوسهم أصبحت مستعمرّة للقمل والصيبان، واشكالهم تبدلت.. أصبحوا أشبه بسعالى أو أشباح..

كانت دورة المياه داخل الزنزانة نفسها، في ركن منها، ليست دورة مياه فعلية، مجرد جردل كبير صدئ، يفصله عن مرأى المعتقلين، ساتر قماش متسخ ومهترئ!

أن كان ثمة معان مختلفة للقذارة والاتساخ، فهذا أسوأها على الإطلاق! هذه البلاد الواسعة، لا ينقصها العراء الشاسع، الذي لطالما استخدمه الأسلاف، في عصورها السحيقة، كدورات مياه.

ورغم أنه كان عراء، إلا أنه كان يحميهم من الأنظار، خلف دغل أو تلة صغيرة أو أكمة شجيرات متكاثفة..

وهذه الأرض الرّحبة، لم تعوزها يوماً المياه، فحتى في وديان دار الريح البعيدة، المرء ليس بحاجة لأكثر من نبش التراب، ليحصل على الماء من "المشيش، الجمام" فيقضي حاجته آمنا دون خوف، فكيف لهم هنا جوار النهر؛ وفي هذا العصر الذي يعج بالمنظمات الحقوقية، يعيشون هذا النمط الغريب من الاعتقال؟

هل تعيش البلاد الأسيرّة، في منحنى زمني آخر، هل تعيش عصراً آخر؟؟! من أين جاء هذا النمط من التعذيب، من أين وفد اليها؟ بابتلاع دويلاتها الواحدة تلو الأخرى؟

ضيف جديد، قذفوا به وسط زحام الزنزانة المكتظة، جثة تكاد تكون هامدة، ووجه مغطى بالكدمات والنزيف. كان واضحا أن ثمّة أكثر من كسر في يديه ورجليه، الألم والدماء المتخثرة، أعادا رسم ملامحه من جديد..

لملم أطرافه قرب زاوية الجدار، كان زائغ العينان، مرعوباً بشدة، وغير راغب في الحديث.

انطفأت حكايات الجميع، سكنتهم الريبة، والوجوم، تبادلوا فيما بينهم نظرات ارتياب مفهومة، ثم انفجروا مرة أخرى يغنون.. ويشعلون فتائل الحكايا، التي تنفجر في وجوههم المنهكة.

تجاسر جادين ودنا منه، قرر اكتشافه، ربت على كتفه وقال:

"أتسمح لي بالجلوس قربك؟"

فلم يرد، اكتفى بالنظر إلي جادين في ذهول، ويده غير المصابة تتحرك بتوتر، وقد كشفت كدمات وجهه عن عصبية وحدة، تختبئ خلف بقايا الدّم المتجمد..

"اتركني في حالي"

قال الرجل، فدنا منه جادين كأنه لم يسمع شيئاً، وقال بلطف:

"نحن هنا أشبه بأسرة واحدة، ليس لنا سوى بعضنا، ما اسمك؟"

غرس الرجل رأسه بين ركبتيه؛ بعد أن قال بصوت مرتجف:

"حامد.. حامد القطي، جنكويزي منشق"...

ثم ابتلع لسانه، وساد صمت عميق!

❀❀❀

كان الجنكويز يجبرون الناس على الصلاة، لايهمهم إن كنت حقاً تصلي أو لا، فقط عليك أن تصلي، فالمعتقل فرصتك للتوبة!

البعض كان يتيمم والبعض الآخر كان لا يأبه، بل كانوا جميعاً لا يأبهون، يقفون صفاً للصلاة.. فقط تفادياً لغضب الجنكويز!..

إذا تجرأ أحدهم وطلب ماء للوضوء، كان يقابل بكل أنواع التحقير:

"هل لديك رب.. هل لديك دين.. تصلي لمن؟"

كان المعتقلين دائماً ممزقين؛ فإن صلوا مشكلة وإن لم يصلوا مشكلة؛ ففي كل الأحوال لا يفلتون من الشتائم والاهانات وربما التعذيب!

عندما تتداعى مثل هذه الوقائع إلى ذاكرة جادين، يشعر ببرد يخز عظامه، لهول الفارق الكبير، بين ماض هذه البلاد وحاضرها، بين المستنيرين الذين كانوا حول أركماني، والرجرجة والدهماء، الذين احاطوا بالعراب والحاكم العام الجنكويزي كأسورة.

فيحدق في وجه القطي، الجنكويزي المنشق، وهو يحكي:

"كانت النساء يتعرضن للإغتصاب كل يوم، وهن في طريقهن لجلب الماء، فالجنكويز حول الآبار وفي الوديان، لا يتركونهن يأخذن الماء، الذي يحتاجن إليه إلا بعد اغتصابهن"

غطى وجهه بكفيه وبكى.. وهو يكرر:

"كنت معهم.. نعم كنت معهم"

ربت جادين على كتفه، أراده أن يستمر في الحكي، كانت ذاكرته توثق كل حرف ينطق به حامد القطي.. قال له بصوت عميق:

"لست وحدك من تم تضليله، لقد ضللوا شعباً بكامله، شعب بكامله متورط، لست وحدك!"

"لكنني كنت معهم، قتلت، واغتصبت وسممت آبار المياه، وأحرقت القرى، كنت أنفذ كل ما يأمر به العراب وتور الجر"

وانخرط في بكاء حار..

❁❁❁

كان المعتقلين في حالة تغير دائم، بعضهم يموت، بعضهم يطلق سراحه، بعضهم ينقل إلى زنازين أخرى، ويحل محلهم معتقلون آخرون، أسرى المعارك الدائرة في دار الريح، أو جنوب النّهر الأزرق والجبال أدنى دار الريح. وكانوا غالباً مصابين بشظايا أو طلقات نارية.

لم تكن تُقدم لهم أي رعاية طبية، ولا تضمد جراحهم، يلقون بهم إلى زنازين الاعتقال ينزفون دمهم قطرة فقطرة، يواجهون مصير الموت أو الموت!

كان المعتقلين أمثال جادين يتعذبون كثيراً، وهم يرونهم يتألمون ويتأوهون ويتعذبون، وتتعفن جراحهم، و تتخثر فتصبح منبتاً للديدان، وتصبح رائحة الزنزانة، أسوأ من هذا العذاب نفسه!

كانوا يتلوون من الألم، ولا أحد يملك شيئاً لتخفيف عذابهم وآلامهم، كل خرق ثياب المعتقلين المهلهلة المتسخة، كانت لا تكفي لتضميد جراح الواحد منهم، وإذا استجدى احداً الجنكويز لإحضار طبيب، كان ذلك يعني أن قيامته قد قامت! ترك هؤلاء الجرحى لمواجهة الموت، الذي كان ارحم من الجحيم الذي يقاسونه!

وكان جرحى المعارك هؤلاء مكوثهم في المعتقل لا يطول، فمن ظل على قيد الحياة، كانوا سرعان ما يأخذونه، إلى التحقيق ثم لا يعود مرة أخرى، ولم يكن العساكر الجنكويز يخفون أنه يتم قتلهم ودفنهم جماعياً، في حفر أعدت خصيصا لهذا الأمر!

فالجنكويز كانوا مغرمين بالقتل الجماعي، والقبر الجماعي!.. القتل والقبر الجماعي سمة لازمت تاريخهم في البلاد الأسيرّة، منذ غزوها أول مرة قبل مئات السنوات!

متى بدأ تاريخ البلاد الاسيرّة ينعطف عن مساره؟

عندما تحالف نبلاء فاز، المتحدرين من كليوة البائدة مع الجنكويز، وتمخض هذا الحلف عن دولة تور الجر، هنا في قلب دار صباح، مركز البلاد الأسيرّة..

سيبدأ تاريخ البلاد الأسيرة وحضارتها العريقة منذئذ، في الانعطاف إلى مسار زمني خارج سياقها التاريخي، وتبدأ في انحدار لا يتوقف.

تبدأ عقائد الناس في الاضطراب، ولغاتهم في الانحسار، الأمر نفسه حدث في دار الريح ليصبح الطريق سالكاً لتحالف "الجنكويز" مع "بيوتات أهالي البلاد الأسيرّة" وتأسيس أسرهم الحاكمة في دار الريح ودار صباح والسافل.

حكى الأهالي وفي الحقيقة، كان الجنكويز ليسوا بحاجة إلى حكاياتهم فهم يعرفونها، بل عاشها أسلافهم و يعيشونها الآن!

قال حامد القطي:

"في المرة الأولى أرسل الحاكم العام، عدة ألوية من الجنكويز بحجة تفريق القبائل وفض الاشتباك، في دار الريح. والقضاء على عصابات النهب المسلح. قامت هذه القوات بحرق وتدمير أكثر من عشرين قرية، وإحراق امرأة مع مولودها، الذي لم يبلغ خمسة أيام بعد؛ ونهبت أموال زوجها، الذي أصيب بعدها باختلال عقلي، لهول ما حدث له ولأسرته، في نفس التوقيت، كانت قوات أخرى بقيادة أحد الجنكويز في ضواحي المنطقة، وأثناء صلاة الظهر، قد قامت بإغلاق أبواب مسجد المنطقة، واطلاق

النار من كل الاتجاهات على المصلين، فقتل أكثر من خمسين شخصاً في الحال.

ارتكب الجنكويز هذه المجازر، تحت مسمى "الخطة الأمنية لدار الريح"!

خلال هذه الأحداث، تم حرق وتدمير وتهجير أهالي القرى والحلالات والفرقان، دون رحمة. تلازم مع هذه الأحداث، القبض على أعضاء حركة صانع الفخار. كما تم اعتقال أحد قادتها، والتحقيق معه في كبرى حواضر دار الريح، ومن ثم تصفيته سريعاً دون محاكمة، تحت إشراف حاكم دار الريح، المفوض بسلطات مطلقة، من الحاكم العام الجنكويزي تور الجر الرابع!

اجتمع حاكم دار الريح، مع قيادات طائفة المقدس سرّه، للبحث في كيفية تصفية الأسرى. فاستقر الاجتماع على دفن كل هؤلاء أحياء في مقابر جماعية، ناحية وادي المرفعين، على مقربة من قوز المطاليق"

كانت ذاكرة جادين تدون كل حرف ينطقه حامد القطي، كأنها تتشرب أنفاسه اللاهثة، وهي تزفر الكلمات والحروف المتلاحقة، ولكن الحادة والمشبعة بالحزن.

واصل حامد القطي:

"ثمة مجزرة أخرى تمت خلف "قوز العرديب" إذ قتل العشرات بوابل رصاص الجنكويز، كانوا يطلقون الرصاص دون هوادة.. بعد هذه المجزرة بيومين كعادتهم، تم إبلاغ الشرطة وبعد أن نُقل الضحايا إلى المشرحة، تجمع الآلاف من الأهالي، للتظاهر ضد هذه الجريمة البشعة. إلا أن السلطات الجنكويزية قامت بمحاصرتهم بكل أنواع السلاح، وأمرت أسر الضحايا باستلام الجثث. وإلا ستكون العواقب وخيمة.

وتضامن مواطني دار الريح مع أُسر الضحايا، وطالبوا بمعرفة الأسباب، إذ لم يعرف للضحايا أي انتماء، سواءً لطائفة صانع الفخار أو غيرها، كما طالبوا بمحاكمة المجرمين. منفذي هذه المجزرة.

ولكن السلطات رفضت ذلك وأعلنت تهديداتها، عبر مكبرات الصوت. وأمهلت المواطنين ربع ساعة فقط لمغادرة المكان. وإلا سوف تطلق عليهم النّار من الأرض، ومن الجو بواسطة إحدى مروحياتها، التي كانت تحلق وقتها فوق رؤوس النّاس.

وعندما انقضت المهلة، وتحركت المروحية تجاه المواطنين، اضطروا للهرب، خوفاً من الهلاك"

"وليس هذا فحسب"

قال القطي،

"فعلى الجانب الآخر من وادي المرفعين، اعتقل عسس النظام الجنكويزي ثمانية مواطنين، قاموا بتوثيقهم بالحبال، ثم جرهم بواسطة عربات لاند روفر، إلى أن تنصلت أطرافهم. فتوفي اثنان منهم في الحال.

أما البقية فقد ادخلو رؤوسهم في اطارات سيارات قديمة، بعد أن سكبوا عليها مواد حارقة. وأشعلوا فيها النار، فماتوا جميعاً متأثرين بالحرق!

وعندما علم ذووهم بالأمر، قاموا بفتح بلاغ، ولكن السلطات قالت بأن الجناة من عصابات النهب المسلح، وطائفة صانع الفخار، وأنهم قاوموا سلطات الجيش الجنكويزي.

❁❁❁

حين نقلوه من سجن القلعة، إلى هذا المعتقل المنفي في التاريخ والجغرافيا، و دفعوه إلى هذه الزنزانة، واغلقوا خلفه الباب، تعرف بعضاً من النزلاء السابقين، الذين كانوا معه في معتقل القلعة..

كانت وجوههم بشوشة ومرحبة على ما بهم من كرب، كانوا يعلمون بالضبط ما يشعر به، ثمة كيمياء غريبة تربط المعتقلين ببعضهم البعض، يتكثف احساسهم بآلام وأحزان بعضهم.

حاولوا أن يبددوا وحشته، فقد مروا بتجربة الانتقال من معتقل لآخر، لذا كانوا يدركون تماما ما يشعر به الآن، سأله أحدهم:

"هل اعترفت؟"

"بماذا اعترف؟ لم ارتكب جرماً اعترف به، ما يطلبونه لا أملكه"

ابتسم آخر وهو يربت على كتفه معضداً:

"عفارم.. عفارم"

سأل آخر:

"هل وجدو لديك وثائق؟"

"وثائق؟ أي نوع من الوثائق؟"

"كل المعتقلين هنا سبب اعتقالهم؛ انتمائهم لحركات صانع الفخار المقاتلة؛ في أطراف البلاد الاسيرّة"

"لا، ليس لدي صلة بأي نوع من الحركات والطوائف، أنا بروفيسور جادين جانو، مجرد باحث.. باحث في التاريخ.. مجرد موظف"

كان أكثر ما يؤرق المعتقلين؛ الجواسيس الذين زرعهم الجنجويد وسطهم، وأكثر ما يزعجهم انكسار أحدهم تحت وطأة التعذيب، ومع أنهم كانوا لا يجدون صعوبة، في اكتشاف الجواسيس والمنكسرين، إلا أنهم يظلون لا يشعرون بالأمان بسهولة، فكل معتقل هو محل شك زملاءه، إلى أن يثبت العكس.

المعتقل الذي ربت على كتفه وهو يردد: عفارم، وضع كفه على كتفه مرةً أخرى، وهو يقول بحنو:

"أنا عتام، عتام ابراهيم، نقيب عمال السكة الحديد، لا تخف، الحوش ليس فيه بلوم، لا تخش شيئاً الدار أمان"

ثم لم يزد، تأمل جادين وجهه طويلًا، كانت ملامح وجهه وتقاطيعه ونظراته الهادئة كنسرٍ عجوز، وكل شيء في قسماته يؤكد أنه خبر المعتقلات والسجون لسنوات طويلة.

"هل احضروك هنا وحدك؟"

قال عتام، فرد عليه جادين باقتضاب:

"لا معي اثنين آخرين، لا أدري أين ذهبوا بهما"

"احضارك إلى هنا يعني أن بقائك سيطول، فكيف نفسك على ذلك"

"لماذا؟ أنا لم أفعل ما يستحق ذلك!"

"ولا أي منا هنا فعل ما يستحق ذلك. أنهم كنمر جريح؛ الآن يتخبطون ويضربون في كل اتجاه، فقد انفتحت عليهم كل الجبهات بعد الانفصال، الذي هيأ لهم قُصر نظرهم؛ أنه سيترتب عليه توطيد سلطانهم إلى الأبد، فخاب ظنهم، فالمشكلة لم تكن يوما الصعيد، المشكلة منذ بدايتها الجنكويز"

"أليس هناك أمل في إطلاق سراحنا؟"

"نحن لا نفقد الأمل أبداً"

للمرّة الأولى وعندما شعر الانجليزي، السكرتير الإداري للمدينة الزاهية، حاضرة البلاد الأسيرّة بنذر اضطراب؛ قد يقوض مصالح الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، دعا إلى عقد مؤتمر في حاضرة الصعيد، هدفه بحث تمثيل أهالي الصعيد؛ في مجلس البلاد الأسيرّة وإنشاء مجلس منفصل لهم، كان يحاول اشراكهم في السلطة، لتحقيق سلام دائم. فجاء إلى المؤتمر قادة طوائف صانع الفخار في الصعيد؛ والموظفين المتعلمين، وفي غضون ثلاث سنوات من هذا الحدث؛ تم الشروع في هدم الجدار العازل!

لكن بعد أقل من خمس سنوات أخرى، بدى واضحاً لطائفة صانع الفخار، أن ما تم كان زائفاً، فبدأت "نقارة الورل" تعزف للحرب، فتمردت للمرّة الأولى إحدى طوائف صانع الفخار، التي ولدت في أحراش غابات الصعيد.

فإحدى الأورطات، التي كان يقودها أحد أحفاد الخزين طبلة، تحمل الرقم صفر، ضمن أورطات جيش الجنكويز، ثارت وقتلت كل القادة الجنكويز ثم زحفت بسلاحها وعتادها إلى داخل حاضرة الصعيد، التي شيدها الجنكويز والغزاة البيض على شاكلة البلدة القديمّة، وقتلوا كل من ليس من الصعيد!

"كانت مجزرة رهيبة!"

"نعم راح ضحيتها أكثر من مائة وعشرين جنكويزيا، وأربعين من الانجليز والأغاريق والطليان!"

كان واضحاً أنهم قد فاض بهم الكيل، وأنهم يستهدفون الغزاة وحلفائهم الجنكويز! وهكذا لتسعة عشر عاماً أخرى لم يتوقف القتال. وبعد أن غادر الغُزاة البيض، وانفرد الغزاة المحليين بالحكم، رفضوا أن يجلسوا إلى طوائف صانعي الفخار.

رفضوا الاستجابة لمطالبها العادلة واختاروا الحرب، ولذر الرماد في العيون استناداً إلى خبرتهم العميقة في تفتيت

الأهالي، وشق وحدتهم، منحوا بعض قادة طائفة صانع الفخار المتهافتين المتأثرين بأفكار الخزين، مناصب رفيعة..

كان تعيينهم اسمياً، رمزياً مضللًا، إذ كانوا عاجزين عن فعل أي شيء لصالح الأهالي، وفي الوقت نفسه كان الجنكويز يقولون للأهالي:

"هؤلاء هم أولادكم، احملوا مطالبكم اليهم، نحن لا دخل لنا"

فانصرف الأهالي إليهم، يسألونهم عن مطالبهم حقوقهم، فكيف يقابلهم أبنائهم؟

يزجرونهم، يعتقلونهم، يعذبونهم، يقتلونهم.. انقسمت طائفة صانع الفخار إلى طائفتين احداهما تتبنى تعاليم صانع الفخار الأصل، وأخرى تتبع خطى الخزين طبلة!

وهكذا بدى واضحا لطائفة صانع الفخار الأصل، أن لا سبيل أمامها سوى إعادة ترتيب صفوفها، وهكذا كثفت من نشاطها في المنفى ضد الحاكم الجنكويزي العام، لكنها انقسمت إلى فصائل أخرى، حملت أسماء مختلفة كاتحاد طوائف صانع الفخار، الذي رأى؛ أن الخير لشعب البلاد الأسيرة في انفصال الصعيد، بدلاً عن إتحاده مع أسفل

النهر، إذا أصر الجنكويز على الانفراد بحكم كامل البلاد الكبيرة؟

أدى هذا الاعلان إلى مزيد من العنف والقمع والحرب بين الطرفين، ومن ثم من داخل هذا الفصيل ولدت طائفة "أفعى صانع الفخار" التي صعدت الحرب، فأصبح الجنكويز في الصعيد يعيشون تهديداً دائماً.. فقدوا إحساسهم بالأمان، وأصبحوا في خوف مقيم من الهجمات المباغتة، التي كانت تشنها أفعى صانع الفخار السوداء.

هذا الخوف دفع الجنكويز إلى تبني تكتيكي؛ لسياسة تسامحية زائفة. فدعت إلى مؤتمر آخر، في حاضرة الصعيد بعد عامين من بداية التصعيد. لحل مشكلة الأهالي مع الجنكويز، وتنازعت المؤتمر رؤيتان:

فبينما تبنت طائفة صانع الفخار الأصل بقاء الصعيد موحداً مع السافل، كدولتين بجيش موحد القيادة، رأت الأفعى السوداء أن لا بديل عن تقرير المصير تمهيداً للانفصال التام!

لكن لم يولي الجنكويز أهمية لما طرح، لم يدرسوه، لم يناقشوه، إذ اكتفوا بالإصرار على فرض ادارة اقليمية من عناصرهم، من أهل الصعيد. أولئك الذين رمزتهم إسمياً فيما مضى؟

وهكذا اتسعت فجوة الثقة أكثر! فاستعرت الحرب أكثر! بل مضت طوائف صانع الفخار في الصعيد خطوة أكبر، بتكوينها لحكومة الصعيد المؤقتة، التي أصبح اسمها "جمهورية النهر، في المنفى" والتي استنفرت لدعمها أهل القبل الأربعة!

كانت هذه المرحلة من التصعيد إيذانا بمجيء حاكم عام جنكويزي جديد، سعى منذ بداية حكمه لحل هذه المشكلة، التي ظلت تهدد وجود الجنكويز وبطانتهم في حكم البلاد الأسيرّة فأعلن في البدء اعترافه بالتباين والفوارق بين صعيد النّهر وسافله، وحق أهالي الصعيد في تطوير ثقافتهم وتقاليدهم في نطاق البلاد الأسيرّة الاشتراكية العظمى الموحدة.

لكن كان هذا إعلاناً تكتيكياً مؤقتاً من الجنكويز، عن التخلي عن نشر ثقافتهم ودينهم في صعيد النهر، ولذلك جاء رد طوائف صانع الفخار في الصعيد مفحماً:

"نحن ضد الشيوعية والتدخل الشيوعي الأممي!"

ومع ذلك وقعت طائفة صانع الفخار مع الحاكم الجنكويزي العام، على اتفاق في "الزهرة الجديدة" عاصمة هضبة الشمس، التي كانت تحتضن ثوار الصعيد، يقضي بأن يحكم الصعيد نفسه! في إطار البلاد الأسيرّة الموحدة.

دمج هذا الاتفاق مقاتلين الأفعى السوداء، في جيش الحاكم الجنكويزي العام، هذا الاتفاق لم يرق لطوائف صانع الفخار في دار الريح، فوصفه أحد زعمائهم القسسة، من داخل "كركوره" في الجبال أدنى دار الريح قائلًا:

"أنه خيانة لأهالي البلاد الأسيرّة الأصليين!"

وانتقدها صانعي فخار آخرون بأنها:

"سلطة مفرغة المحتوى، فالقرارت المصيرية لا تزال بيد الجنكويز بنص الاتفاق!"

ومع ذلك بقدر ما التزم المقاتلين السابقين بالاتفاقية، بقدر ما كشفت الاتفاقية تهافتهم، إذ بدا واضحاً أن رفاق الأمس، أضحوا يتنافسون منافسات حادة، لاتخلو من الأبعاد الذاتية والشخصية، بل وتعمق فيهم الاحساس القبلي الضيق، الذي وظفوه في هذا التنافس، لترجيح كفة مآل السلطة لمن!

وما هو أخطر أنهم كانوا يعانون نقصاً حاداً ومزمناً في مهارات الإدارة، بسبب انعدام الخبرة والتجربة، وترتب على الاتفاقية حركة تبشير ديني حادة، رمى فيها حلفاء كل طرف بثقليهما.

فيما طائفة صانع الفخار الأم مشدوهة تراقب ما يجري في ذهول تام! إلى أن انفجرت الأوضاع باعلان الحاكم

الجنكويزي العام، عزمه على تطبيق قوانين منسوبة للدين، وهكذا لم تجد طائفة صانع الفخار الأم بداً عن الخروج عن صمتها! إذ بلغ الاحتقان ذروته! فأوعزت لاحدى فرقها العسكرية بالتمرد، وتوحيد طوائف صانع الفخار في طائفة واحدة، وبالفعل رفضت هذه الفرقة تنفيذ أوامر صادرة من "سافل النهر" بمغادرة موقعها في "الصعيد" والانتقال إلى السافل.

وقتلت ضباط الفرقة الذين ينتمون إلى السافل وفرت إلى الغابات، فأرسل الجيش الجنكويزي قائداً من أهل الصعيد لإقناع المتمردين بفض التمرد، لكنه انضم إليهم بل أصبح هو من يقود التمرد!

وكان هذا التمرد إيذانا بميلاد "الجيش الأهلي لتحرير البلاد الأسيرة!" الذي ظل يخوض حرباً شرسة ضد الجنكويز، تكبد فيها الجيش الجنكويزي هزائماً متوالية وخسائر فادحة.

كان واضحاً أن الأمور بدأت تخرج عن يد الجنكويز! فأصبح التذمر داخل جيشهم ومؤسساتهم حالة عامة. وتدهورت العلاقة بين الجيش والشعب الذي لم يكف عن التساؤل:

"لماذا البنادق موجهة دائماً الى صدور أبنائه في الداخل، ولا توجه لدحر الغزاة؟!"

ومن جهة أخرى تتالت الإدانات والاتهامات المتبادلة، بين الجيش والحاكم الجنكويزي العام وطاقمه! وبات مقاتلو صانع الفخار أقرب من أي وقت مضى لتحقيق أهدافهم!

شعوب البلاد الأسيرّة التي لطالما جنحت للسلم أعيتها الوعود الكاذبة والاتفاقات الزائفة!

"لم يعد للكلام جدوى.. لم يكن الصمت ممكناً"

قال عتام مقاطعا القطي:

"هؤلاء الناس أشعلوا نيران حرب بشعة، منذ قرروا انتزاع أراضي أهالي دار الريح من مُلاكها، ومنحها لقبائل الجنكويز المترحلة من مكان لآخر، عبر تاريخ البلاد الأسيرّة، ما أدى لأعمال العنف والعداء، وجعل دار الريح ترزح تحت وطأة حكم عسكري وإجراءات استثنائية، اتسع خلالها نطاق الاعتقالات، ومورست فيها أنماط غير مسبوقة من التعذيب، والتمثيل بالجثث.

سرح القطي بذاكرته قليلًا، قبل أن يستمر في الحكي:

"كون حزب الحاكم العام تحالفاً من كل قبائل الجنكويز، استهل نشاطه بمهاجمة قرى دار الريح فقام بحرقها وتدميرها جميعاً، قتل آلاف المواطنين منذ بداية الهجمات، وتمت سرقة ونهب كل المواشي، معظم هذه الهجمات كانت

تتم ليلًا، فعند وصولهم للقرية يبدأ الجنكويز في إشعال النيران في كل القرية.

والمواطنون الذين يهربون. تحصدهم النيران. وتتوافق الهجمات مع مواسم الحصاد. وبهذا تقوم المليشيات بتعريض الأهالي، لخطر المجاعة، وإجبارهم على هجر أرض أجدادهم.

"كانت بعض الطائرات التي تقصف الاهالي، تنتمي للجوار العربي، وكان يقاتل معنا جنكويز من دول عربية عديدة، يعتقدون أن هذه الحرب لنصرة عقيدتهم وعرقهم"

الحرب لم تستثنى أي جزء من جغرافيا دار الريح، كانت يوماً بعد يوم تتصاعد بصورة أسوأ من اليوم الذي سبق. وكانت المليشيات تستخدم اللاندكروززرات المحملة بالمدافع، وتستخدم الخيول. واثر كل غارة كان الأهالي الناجين يتعرضون للتشريد، فيفرون إلى دول الجوار.

وقد بدا واضحا أن نظام الحاكم العام يسعى لإبادة أهالي دار الريح، لتحل محلهم قبائل الجنكويز التائهة في الصحراء الكبرى والجوار..

فبينما كان الحاكم العام يمد مليشيات الجنكويز بالسلاح والمعدات والعربات، والتدريب. كان في الوقت نفسه ينزع سلاح الأهالي، الذين بالأساس يقيد قانون الطواريء حقهم

في الدفاع عن أنفسهم وحريتهم في الحركة. كما يعرضهم هذا القانون العرفي للاعتقالات الجماعية، والقتل خارج نطاق القضاء.

كان واضحاً أن ما يجري هو تطهير عرقي مكتمل الأركان، وهو الأمر الذي دفع طائفة صانع الفخار إلى حمل السلاح، دفاعاً عن الأهالي العزل الأبرياء، خاصة بعد أن تم اتهامهم بجريمة لم يرتكبوها، بقتل عدد من زعماء قبائل الجنكويز، الذين قتلوا في الحقيقة نتيجة صراعات داخل تحالفهم، تتعلق باقتسام ما استولوا عليه من أراضي.

فصرح الحاكم العام باعتبار كل الأهالي خارجون على القانون، ما لم يسلموا أعضاء طائفة صانع الفخار إلى السلطات، التي اعتبرتهم طابوراً خامساً، مناهضون لنظام المقدس سرّه.

وحتى تكتمل أركان الإبادة تم اغلاق المنطقة. وحظر على أى مواطن مغادرتها. حتى لا ينجو أحد من الهجوم الكاسح، الذي تم الإعداد له من قبل الجنكويز.

فضلًا عن الأرواح التي أُزهقت، والمعاقين وذوي العاهات المستديمة من ضحايا الحرب.

خسر الأهالي مساكنهم التي أُحرقت ومواشيهم وأموالهم التي نهبت، وشهد قطاع البستنة الصغير، لكن القوى والحديث، في اقتصاد دار الريح نكسة خطيرة.

إذ أُقتلعت أشجار الفاكهة. وفُقدت استثمارات كبيرة من السيارات وطلمبات المياه والمحاريث والمطاحن، وما يمكن تسميته "القطاع الحديث الصغير النامي في اقتصاد دار الريح".

❁❁❁

سأل جادين زميله المعتقل، الذي كان يُكثر من الأسئلة:

"وانت من وين، وما قصتك؟"

"أنا من "كتري". كنت أهرب الأسلحة والذخائر من دار الريح، إلى جنوب النهر. لكن عندما اعتقلوني لم يضبطوا معي شيئاً يؤكد نشاطي.

مررت بنقطة تفتيش أمروني أن أجنب. فتشوا البوكس الذي كنت أقوده، ولم يجدوا شيئاً! كنت أعلم مسبقاً أن هناك خائن وشى بي، لم يكونوا يعلمون أنني بدلت العربة، وفي اللحظة التي كانوا يفتشون عربتي، كانت العربة الأخرى قد وصلت للطائفة في الجبال أدنى دار الريح.

كانوا يدركون أن ثمة خديعة حدثت، فهم متأكدون من مصدر معلوماتهم، لكن لم يكن بيدهم دليل فرموني هنا. هذا كل شيء!"

والتفت جادين بوجهه إلى معتقل آخر:

"وانت، ما قصتك.."

صمت لبرهة قبل أن يقول:

"قصتي لاتختلف كثيراً عن قصته، أهرب السلاح إلى الثوار في الجبل صعيد دار الريح. لم يكونوا متأكدين من أمري، لم يستطيعوا إثبات شئ، فقد اعتقلوني في حملة عشوائية، طالت كل من يشتبه في انتمائهم لثوار الجبل. رأيت أبرياء، أعرف أنهم أبرياء قُتلوا أمام ناظري"

"لماذا قتلوهم؟"

"تواجدوا في الزمان والمكان الخطأ!"

منذ أكثر من سبعة عقود بدأت الأحداث في دار الريح تتداعى، فبعد أن نمى إلى علم أبناء دار الريح، المبتعثين في القبل الأربعة، عن نية الغُزاة البيض في فصل دار الريح، عن البلاد الأسيرّة، وضمها إلى مستعمرات مجاورة، لتكوين كومنولث.. أرسلوا وفداً من أربعة من

زملائهم، عُرفوا بانتمائهم المتطرف لطائفة صانع الفخار، لتقصي الحقائق.

ومن ثم تسارعت الأحداث التي وصلت ذروتها، بأن قامت جماعة من طائفة صانع الفخار، بإحراق علم الغُزاة المستعمرين.. وهو مالم يحدث في أي مستعمرّة أخرى!

من جهة أخرى تسربت شائعة، أن الغزاة ينوون تنصيب أحد الجنكويز ملكاً على دار الريح، وهو أمر سيصبح تقليداً يتبعه الحكام الجنكويز في المدينة الزاهية، إذ سيظلون في كل عهودهم، يصدرون نواباً جنكويز إلى الصعيد ودار الريح وغيرها كممثلين لهم!

الأمر الذي أثار حفيظة الحكامات والميارم، فانطلقت التعبئة العامة والحشد الشعبي.

لكن بعد عام من استبدال الغزاة البيض بمستعمرين محليين، انقسمت جماعة من طائفة صانع الفخار في دار الريح، أطلقت على نفسها اسم لهيب صانع الفخار!

ولم تهدأ الأمور قليلًا، حتى أعلن مقاتلون متطرفون من طائفة صانع الفخار حربهم المقدسة على الجنكويز، وتوالت الانقسامات في طائفة صانع الفخار الأم بدار الريح.

وجميعها من حملت السلاح ومن لم تحمله، التقت حول خيارين:

"الحرية أو الموت"..

وهي مطالب الصعيد ودار صباح وأطراف البلاد الأسيرّة نفسها، التي كانت ترفعها طائفة صانع الفخار في كل مكان!

وهكذا توالت عبر السنوات الحركات الانقسامية والاحتجاجية والانتفاضات، التي وصلت إلى مرحلة متقدمة، بدعم من طائفة صانع الفخار في الصعيد، بثورة صانع الفخار، الذي صُلب على احدى اشجار النيم في قلب المدينة الزاهية، ليلحق بمن صلبوا من أسلافه الميامين.

عبرت انتفاضة صانع الفخار المجيدة الأخيرة، عن تحرر طائفة صانع الفخار بدار الريح أخيراً، من الوهم وخيبة الأمل، التي أصابت الطائفة في الصعيد من قبل! بانكشاف الخديعة وسقوط أقنعة النفاق الجنكويزية!

ورغم فشل هذه الثورة إلا أنها مثلت منعطفاً حاداً، إذ شكلت الأساس الذي مهد خيار القتال في دار الريح، بتحول كامل لطوائف صانع الفخار في هذا الاتجاه!

هذا ما كان يجري في دار الريح، فما الذي جرى في الجبال أدنى دار الريح وصعيد النهر العكر، قال حامد القطي:

"تم التكريس لحالة الطوارئ. ومنع دخول الاغاثة وأطلق الجنكويز يدهم في دخول الأماكن العامة والخاصة. والتفتيش دون إذن أو أوامر. وتحديد إقامة وحركة المواطنين. والاستيلاء على الممتلكات الخاصة، بحجة استخدامها في ملاحقة الجناة. من عصابات النهب المسلح.

كما تم التشهير بالمواطنين باسم الدين. في قضايا أخلاقية باسم المحافظة، وايقاف حركة المواطنين بالسيارات، فيما عرف بصمت الحركة. في كل أسبوع ابتداء من ليلة الأحد وحتى صبيحة الثلاثاء!..

فتعطلت مصالح الناس. وكان ذلك بحجة توفير الوقود، "استعداداً لتحمل المشاق ومحاربة الغرب الكافر "..

ثم أصبح السماح للمواطنين بالحركة في يوم الصمت "الاثنين" كل اسبوع عن طريق تصديق برسم مالي. كما تمت إزالة منازل بعض المواطنين، لأغراض بيع الأرض في خطط استثمارية دون سابق إنذار. وعندما أوقفت المحكمة المختصة تلك الإجراءات. لم تعترف سلطة الطوارئ بأمر المحكمة.

وتدخل الجنكويز في أخص خصوصيات المواطنين، إذ أخذوا يهاجمون بيوت الناس، ويدخلون على الرجال وهم على أصلاب زوجاتهم! وكادت أن تحدث فتنة دينية! عندما لاحق هؤلاء أحد المواطنين، من أبوين مختلفي العقيدة.

وحكموا عليه بالجلد لعلاقته بفتاة ليست على عقيدته، أفضت إلى الزواج.

❁❁❁

بعد أن كفوا عن استدعائهم للتحقيق لأكثر من أسبوعين، عادوا مرّة أخرى، يأخذون منهم في كل يوم اثنين أو ثلاثة للتحقيق، وما أن ينتهوا من التحقيق مع الجميع، حتى يعيدوا التحقيق مرة ثانية.

كان المعتقلين يعودون من التحقيق، في حال مزرية، من شدة العذاب والإرهاق. وجوههم متورمة مدمّاة، و أسنانهم مهشمة، والحروق تكاد تحتل كل جزء من أيديهم وأجسادهم!

وجاء دور جادين.. نادوه باسمه فخرج من الزنزانة، بصحبة جنكويزي أخذ يدفعه دفعاً بمقدمة سلاحه، وكان بانتظاره أربعة من الحرس، أحدهم يرتدي اللباس المدني المميز لعسس الجنكويز. قيدوه وعصبوا عينيه، وأخرجوه من المبنى، وألقوا به في سيارة لاند كروزر، ومشوا به مسافة قبل أن يتوقفوا، وينزلونه في بناء آخر لم يستطع التعرف عليه!

استقبلته صرخات الألم المريعة، التي يطلقها الخاضعون للتعذيب في هذه اللحظة! كانت صرخاتهم شديدة الألم، تنفذ من أذنيه إلى عظامه، فتصيبه بقشعريرة مخيفة، وتنفذ إلى روحه فتشربها، وإلى قلبه فتشرخه، وتدخل في نفسه روع لا حد له!

كانت صرخات المعذبين والجلادين تمتزجان، التأوهات والبكاء والشتائم المقذعة، التي تطفح بالغل والتلذذ والظفر!.. مشهد من الأصوات المعذَبة والمعذِبة يخترق الذاكرة والوجدان، فلا ينمحي أبداً!

أدخلوه في غرفة تكاد تكون عارية، إلا من كرسي، وطاولة رُصت عليها كل أدوات التعذيب، التي يمكن تخيلها! وأخذوا يركلونه ويضربونه بكابلات الكهرباء، وبعد وقت لا يدري كم دام، أدخلوه عبر باب جانبي، على محقق بادره بالأسئلة:

"قبيلتك؟"

"قبيلتي هي البلدة القديمة، البلاد الأسيرّة.. كل البلاد الأسيرة.."

"اتريد أن تتحاذق؟!"

قال المحقق في غضب، وهو يهوي علي صدغه بصفعة مدوية. العسكري الجنكويزي هو الآخر هوى على ظهره بسلك كهرباء وأخذ يجلده بغل! فأخذ يصيح ويتلوى من الألم.. قال المحقق مرّة أخرى:

"تريد أن ترتاح أم تريدنا أن نزيدك؟ أعترف وسنريحك من العذاب!"

"ليس لدي قبيلة، لا أعرف لنفسي قبيلة، هكذا وجدت نفسي"

"كما تشاء، يبدو أنك ستتعبنا معك. يجب أن تعترف، لا أحد بإمكانه أن يصمد، فاختصر على نفسك العذاب وجاوب إجابات محددة.. يجب أن تعترف، لتخرج"

جذبه أحدهم ودفعه بعنف إلى غرفة أخرى؛ كل ما استطاع تمييزه فيها ثلاثة عساكر، بدت وجوههم مألوفة!.. ألقوا به على الأرض، وأوثقوا رجليه بعصا وحبل ورفعوهما، ثم أخذوا يضربونه بسلك غليظ..

تمالك نفسه قليلًا مع الضربات الأولى، لكنه فشل في الاستمرار في تحمل الألم، فأخذ يصيح من شدّة الألم..

اشتد ضرب الجلاد وامتد، فشعر برجليه تتقدان بنار يسري حرها حتى يصل إلى دماغه، الذي أخذ يغلي.. أعادوه مرة أخرى إلى المحقق الذي قال له:

"يبدو أنك الآن صرت أعقل وستخبرني بالحقيقة.. ستخبرنا عن قادتك في التنظيم السري"

"لم أكذب عليك لم أذكر سوى الحقيقة، أنا مجرد موظف في معهد..."

ولم يتركه يكمل إذ هوى على صدغه بصفعة مدوية وأخذ يصرخ في وجهه كالمجنون:

"يجب أن تكف عن هذه الاسطوانة المشروخة، كذاب! من تعرف من القيادات الميدانية لحركات صانع الفخار، وكيف يتم التنسيق الميداني بينها؟ أجب"

وبصوت آلي منهك وهو يكاد يفقد الوعي أجاب:

"لا أعرف أحداً. أنا مجرد..."

"كذاب! قل: من تعرف من قيادات الحركات المسلحة وكيف يتم التنسيق بينها؟"

"لا أعرف أحداً، صدقني لا أعرف أحداً.. أنا مجرد باحث في التاريخ.."

"اعترف.. هل تلقيت تدريباً عسكرياً، وكم قتلت منا، اعترف"

"أنا مدني، لم أقاتل يوما ولم أرى القتال إلا على شاشات التلفزيون، وصفحات الكتب لا أفهم في القتال؛ ولا اؤمن به كوسيلة للتغيير، فكيف سأقتل؟!"

"اسمع يا طرطور! ستعترف وإلا فما رأيت من الفيل إلا ظله! أعترف كيف يتصلون بك وتتصل بهم اعترف يا كافر"

كان جسده يشتعل من الألم، وكلماتهم تحفر في وجدانه جراحاً غائرة، لا تندمل! لم يكن لديه ما يقوله لهم! هجم عليه أحدهم، و أطفأ سيجارته على رقبته. فصاح متألماً، وهم لازالوا بإصرار عنيد يلحون عليه بالاعتراف. في تلك اللحظات لو كان يملك شيئا للاعتراف به لفعل، لعله يخفف من العذاب.. هذا العذاب الذي جعل الموت قاب قوسين أو أدنى، يتراءى أمامه.. هيمنت عليه فكرة الموت.. أخرجوه وقال أحدهم:

"ستعترف الآن وإلا قتلناك"

ووضع فوهة البندقية في جبهته وهو يفك التأمين ويقول:

"ما رأيك تعترف أم أنهي حياتك؟"

"والله ما عندي أي شيء أعترف به، وإلا كنت اعترفت"

واطلق النّار.. شعر جادين بالبارود يلسع وجهه، وبصم في أذنيه.. لوهلة ظن أنه مات.. لكنه لم يمت بعد. كان في حال من الرعب والهلع لا يدري أهو حي أم ميت، ثم انتبه لما حدث.. لم يطلق العسكري الجنكويزي النّار على رأسه، إذ حرف بندقيته في آخر أجزاء الثانية، فمرت الطلقة بجانب أذنيه.

في المرّة الثانية التي أخذوه فيها للتحقيق، كان المحقق هذه المرة أقل عنفاً.. لم يعذبونه. أخذت لهجة المحقق تلين. وجه له الأسئلة ذاتها التي سأله إياها في المرّة السابقة. ثم قال له:

"عرفنا كل شيء بشأنك ولا داعي للإنكار، عرفنا قبيلتك ومسؤليك والخلايا التي تديرها، عرفنا كل شيء. الأحسن لك أن تخبرنا بالحقيقة. قل لنا من تعرف من القيادات وأخبرنا بما تعرف. إذا أخبرتنا وكنت ترغب بالتعاون معنا، وعد مني أن نطلق سراحك. لا تظن أننا ضعفاء! نحن الآن باسطين سلطتنا على الأرض، والبلاد الأسيرّة كلها في قبضتنا، وكل جيوب صانع الفخار والعملاء نعرفهم! وعما قريب سنقضي عليهم دفعة واحدة، نحن الان نحاصرهم، وقريباً ستسمع أننا أخضعناهم لوكنت لاتزال حيا! سنعدمهم جميعاً، وأنت قبلهم! لأنك باشتراكك معهم

خائن مثلهم! سنطعم جثتك الكلاب! الأفضل لك أن تتعاون معنا فنحن الأقوياء، مقابل عدم اعدامك، حريتك، وسنعطيك وضعاً مهنياً مميزاً، وستصبح ثرياً جداً، هذه الأرض أرضنا نحن، نفعل فيها ما نشاء، وليست أرضهم، ولا يجرؤون على مجرد الحُلُم بها سنهزمهم، مثل كل مرّة، فأفضل لك أن تقف في صفنا وتتعاون معنا. ماذا قلت؟"

"والله مثل ما قلت لكم في السابق أنا مجرد موظف، باحث في معهد بحثي. وإن كنتم قد عرفتم كل شيء عني، المؤكد في الأمر أنكم ستعرفون أنني برئ من هذه الاتهامات، ولا صلة لي بأي طرف في الحرب"

يبدوا أنهم كانوا قد تيقنوا من صحة كلامه، وأنه لا صلة له بأحد، فلم يلحوا عليه بعد ذلك في التحقيق كثيراً، ولعلهم لم يحضرونه إلا ليعرضوا عليه التعاون معهم، ليصير جاسوساً ضد أهله وقومه، ولما لم يجدوا منه تجاوباً أعادوه إلى المعتقل.

الاعتقال الذي طاله، كان ضمن حملة اعتقالات، بسبب التصاعد المفاجئ لوتائر الحرب في الجبال أدنى دار الريح، فيما يشبه حرباً أهلية ثالثة، فما جرى ويجري هناك كان نسخة بالكربون عما جرى ويجري في الصعيد وأعالي دار الريح، فالحرب المقدسة للجنكويز في الجبال كما في غابات الصعيد، ليس ثمة فرق.. ذات القمع والوحشية!

رغبة الجنكويز في الاستيلاء على الموارد والثروات، جعلتهم يجعلون من هذه الأجزاء من البلاد الأسيرّة أرضاً محروقة!

فبعد الهدوء النسبي الذي ساد البلاد الأسيرّة، اثر البروتكول والاتفاق اللذان رعاهما الغرب، فافضيا لفصل للصعيد عن البلاد الأسيرّة، اندلعت الحرب بين طوائف صانعي الفخار والجنكويز مجدداً، وقبل استقلال الصعيد عن البلاد الأسيرّة، أنشأت طائفة صانع الفخار الأصل، تحالفاً واسعاً مع كل طوائف صانع الفخار في البلاد الأسيرّة، وهكذا اعتباراً من تلك اللحظة، تضرر أكثر من مليوني شخص من الأهالي، وفر أكثر من مليون إلى بلدان الجوار مع اشتداد القتال!

وقبيل انتخابات الجنكويز المخجوجة التي درجت على تنصيب تور الجر في كل دورة انتخابية، منذ استبدل الغزاة البيض بمستعمرين محليين، تصاعدت وتيرة الحرب في توقيت الاستفتاء، لمنع الأهالي من إبداء رأيهم حول الوحدة والانفصال.

لذا وقُبيل الاستفتاء بقليل، أنشأ الجنكويز طرقاً ترابية وخزانات لنقل النفط، ومن ثم بدأوا ينشرون مسلحيهم في المنطقتين، خصوصاً صعيد النّهر العكر، حيث المنشآت

العسكرية القديمّة والأخرى الجديدة، التي شرعوا في بناءها، ما كشف النوايا التي يبيتونها.

وهكذا اندلعت حرب ضروس، للسيطرة على الموارد التي تذخر بها المنطقتين! تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة! فيما فر الأهالي وقتها، إلى صعيد النّهر وشيك الانفصال!

حاول وسطاء من الجوار تهدئة الأوضاع، عبر سلسلة من المحادثات والمفاوضات، لكن كل الوعود التي بذلها الجنكويز تم نقضها، واستمرت الحرب. فاضطر الجوار والعالم إلى نشر قوات حفظ سلام في المناطق الأشد توتراً! مناطق النفط والذهب!

لكن ذلك لم يخفض درجة التوتر. بل سارت الأمور على نحو أسوأ. بتكثيف الجنكويز للقصف والقتل العشوائي، وتجريد حملات وحشية لإبادة السكان الأصليين. كانت حربهم في الأطراف كما هو حال حرب أسلافهم: خالية من الشرف، ولا نهاية لها سوى تدمير كامل أجزاء البلاد الأسيرة، وهو ما بدا يلوح في الأفق!

❀❀❀

ثمة أسرار، تجعل المرء أحياناً عاجزاً عن التخلص ممن يكرههم، وفي الوقت ذاته، كلما رآهم تجددت داخله كل الأحزان المنسية!

أسرار كهذه التي تكشف عنها قسمات وجهي المريود والقطي، هذان الوجهان البائسان الباحثان عن غفران يستعصي حتى على الأنبياء.

تلفت في الوجوه حوله وهمهم:

"ليس ثمة أنبياء هنا!"

بقي ورفاقه في المعتقل، كالمعتاد يعانون الجوع والقذارة والقمل والنمل والحشرات. وكان كلما تمعن وجوههم حوله، ينتابه شعور صادم، إذ يبدون، مختلفين عن اليوم الذي سبق، كأنهم يهرمون ويشيخون بسرعة يصعب قياسها، أو ملاحظتها!

لطالما تألم وحده، لكنه لم يشعر يوماً بالألم، على هذا النحو، الذي يشعر به الآن، في هذه اللحظة الشائخة، كوجوههم التي تكشف عن ألم ومهانة لا حد لهما!

وفيما هو غارق في هذه التأملات، قطعت الكهرباء فجأة وأظلم كل شئ، ثم لم تمض برهة حتى انتزعه انفجار مفاجئ، انخلعت له قلوب الجميع! كان السجن يتعرض إلى

قصف مباشر وعنيف، بدى واضحاً انهماره، من كل الاتجاهات!

أصوات انفجارات القذائف القوية التي أصابتهم برعب شديد، دفعت بهم للالتصاق ببعضهم، كأنهم يجدون في ذلك حماية من الموت، أو الاصابة!

سأل صبية في ظل الغبار عن معلم بارز محدد، أعتاد أن يعرف موقع بيت هيلدا منه، كان يعلم أنه هنا في مكان ما، لكن الغبار يحجب عنه معالم الأحياء السكنية، التي تغطت برماد الانفجارات، فأشار أحدهم:

"من هنا.."

وقال آخر:

"لا يبعد كثيراً، إذا سلكت هذا الطريق"

كان طريقاً ضيقاً متسخاً، محترق الأشجار، ابتسم وهو يتذكر مصريين وسط البلد عندما تسألهم عن مكان ما تقصده، ولا يعرفونه، فيقولون:

"بص حضرتك، تاخد أول يمين في شمال في يمين.."

يرمون بك بحسن نية في متاهة انعطافات لانهائية يميناً وشمالاً، فقط لأنهم يجدون صعوبة في أن يردوا على سؤالك، بأنهم لا يعرفون المكان الذي تقصده!..

رائحة النّهر التي تغزو خياشيمه الآن مشبعة بالدخان، تستعيد إلى ذاكرته بعض الذكريات.. أخبرته هيلد:

"قهوة عمك عوض، مسكني خلفها بشارعين"

لطالما حدثته بحماس عن قهوة عمك عوض، التي كانت متكأً للمجروحين بانصال خذلان حبيباتهم، واستراحة للمسافرين، ريثما يرتشفون الحليب المقنن باللقيمات، أو يلتهمون الباسم ثم يواصلون طريقهم، وملتقى للباحثين عن أرزاقهم في أعمال البناء، فكل مقاولين البلدة القديمة وعمال البناء، يتجمعون هنا ينتظرون أرزاقاً قد تأتي وقد لا تأتي!

قهوة عمك عوض أحد رموز البلدة القديمة منذ كانت مخزناً للجلود المدبوغة، فحتى الآن، رغم مرور سنوات طويلة، منذ اصبحت قهوة، بامكان خياشيمك أن تتحسس تلك الرائحة الغامضة للجلد المدبوغ بالقرض والملح الأجاج!

سألها دهشا:

"هل ترتادين القهوة؟"

فضحكت:

"ليس لهذه الدرجة ولكن كل الذكور من أفراد أسرتي، كانوا يرتادونها، ولا تخلو حكاياهم اليومية عنها"

لحظتان لن تنمحيا من ذاكرته، اللحظة التي؛ غادر فيها مسكن هيلدا بعد سهرة دافئة، فيما كان النهار يتمطى ليولد خلف نافذة مكتبه، لحظة داهم الجنجويد مكتبه واعتقلوه! واللحظة التي كان فيها النهار يذوي وتتهاوى شمسه في الأفق الغربي، فيما الجنكويز يدفعونه إلى داخل الزنزانة، فيطوي ليل البلدة، آخر النهارات المسكونة بصمت الناس وبؤسهم الذي انفجر فجأة على هذا النحو المدمر! فتلاشي كل شيء داخل انفجارات تيار غضبتهم العارمة!

طرق على الباب بتوتر.. جاءه صوت هيلدا من الجانب الآخر:

"حاضر، حاضر لحظة"

وتقدمت خطاها في شرايينه، وقلبه ينتفض بشدة!

٢٠١٦ــ ٢٠٢١

بنسيلفانيا، تكساس،

فيرمونت، ميتشيغان

أحمد ضحية

المنشق

ريبورتاج المرايا والظلال

كانوا جميعا كأهل الكهف، يفيقون الآن من نوم عشرات السنوات، لا يأبهون لعربات الردع الجنكويزي، التي اختبأت في زوايا الشوارع، والزقاقات، مستعدة لإطلاق آلات القمع في أي لحظة.

تدفقوا كسيل عارم يجتاح كل شيء: مأساتهم الاجتماعية العميقة، وادي الآلام .. قوز المراثي.. ود أم جبو.. كتب التاريخ الزائفة.. سهول الأحزان.. شجرةّ اللعوت سيئة الرائحة.. بيوت الأشباح في القلعة العريقة.. القيادة العامة لقوات الجنكويز المسلحة، المخطوطات الزائفة.. تقارير المنظمات الدولية.. قبور المقدس سره وأسلافه وأحفاده، في مقبرة عائلته البديعة.

جرف الثوار والمتظاهرون واحرقوا كل شيء، فلم يتبق سوى الآثار الدارسة لحيّاة بكاملها، في عصور بكاملها.. كانت هنا ذات عصر، متداخلة بشكل أربك حياة أهالي البلاد الأسيرة!

ثلاثية صانع الفخار
الجزء الثالث
ثلاثية ملحمية

دار بسمة للنشر الالكتروني
+212 771 814 934
basma24design@gmail.com
دار بسمة للنشر الالكتروني
www.darbassma.com